العدول في الخطاب القرآني
ومدى ائتلافه مع حال المخبر عنه

د ٠ حمود بن إبراهيم بن عبد الله العصيلي (*)

المقدمة :

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده... أما بعد:

فالقرآن روح أنزله ﷻ على نبيه، من مشكاته نستمد النور في الحياة، ومن إشراقاته نتمحص الحقيقة نحو النجاة، هو كلام الله ﷻ الذي أنزله على خير خلقه، وكفى بذلك شرفًا لنا نحن المسلمين.

إن القرآن ذو قدر عال في المضمون، ودقة متناهية في البيان والإعجاز، لا يختل لفظه عن دلالة معناه، ولا تقصر تراكيبه عن مقاصده وغاياته على تنوعها، فكل حرف فيه جاء دقيقًا قد أُنزِل منزلة محكمة لا يحلّ محلها أي لفظ آخر، وإن قاربه في اللفظ أو الدلالة، وكل لفظٍ جاء مختارًا مقصودًا في ذاته، لا يمكن لأي لفظ آخر أن يقوم مقامه، ولو كان مرادفًا له، وكل تركيب فيه جاء متناسقًا مؤتلفًا مع معانيه وغاياته لا يمكن لأي تركيب آخر أن يستبدل توزيع تراتيبه وأحوال نظمه به.

إن مما يلفت النظر لدى الدارس للقرآن هو ما يجده من اختيار للألفاظ والتراكيب التي تخرج عن القاعدة النحوية وتراكيبها وإعراباتها، أو عن الوزن الصرفي أو الدلالة المعجمية المعهودة، أو عن مناسبة المقام في الظاهر.

(*) أستاذ البلاغة المساعد في قسم اللغة العربية وآدابها بكلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية – جامعة القصيم – المملكة العربية السعودية.

فكان هذا الأمر معقد العزم على تتبع الآيات والنظر في هذا الوجه الذي جاء به الخطاب القرآني لا على وجه القلة أو الندرة، بل هو يشكّل ظاهرة أسلوبية في بيانه.

إن تصريف القول في القرآن جاء على هذا النسق من العدول سواء على المستوى اللفظي أو التركيبي، وسواء جاء العدول على مستوى النوع أو على مستوى الكم قلةً أو كثرة، وهذا هذا مدار دراسة البلاغيين في تتبع علوم البلاغة الثلاثة الممتدة من نظرية النظم، التي كان من أسسها دراسة هذا العدول سواء في الاختيار للألفاظ أو التراكيب.

ومن هذا المنطلق البياني الذي شكل ظاهرة في دراسة تراكيب القرآن، جاء هذا البحث ليكشف وجهًا من أوجه أسرار العدول، وهو وجه لم يلق الاهتمام لدى دراسة الأوائل على وجه الاستقلال والخصوصية، سوى ما جاء من إشارات سريعة، لم تصل إلى التبويب الخاص في ربط هذا العدول بالائتلاف الذي يتصل بالسياق الخارجي، وهو أحوال المخبر عنه في القرآن، وما تتسم به من أحوال خاصة لكل فئة من الفئات أو أحوال متغيرة تمثل طبيعة النفس البشرية في تقلباتها وتنوع أحوالها، ومع هذا الاختلاف وهذا التعدد لتلك الشخصيات المخبر عنها، واختلافها بين مخبر عنه محدد معروف، ومخبر عنه آخر موصوف، وبين مخبر عنه واحد، ومخبر عنه جماعة، فإن الإخبار عنها من خلال العدول المؤتلف معها كشف الدقة المتناهية للقرآن في الجمع بين علو الطبقة البيانية، ومراعاة اختلاف تلك الأحوال، مع الإحاطة بكل تفاصيل تلك الأحوال، وما تكنه نفوسها، وما تظهره على حد سواء، والتعبير عنها حقيقة لا تمثيلًا ولا تخييلًا، وهذا ما يكشف وجهًا من أوجه الإعجاز الذي يصعب على البليغ من البشر أن يوائم بين نصه والمحافظة على مستوى بيانه، ووصف أحوال من يخبر عنهم في تفاصيل

حياتهم وما تكنه صدورهم دون أن يكون للتخييل والتقول عليهم أو وصفهم بما يتناسب مع نصه وبيانه.

لقد جاء هذا البحث من خلال مقدمة ومبحث خاص في بيان مفاهيم البحث التي تتمثل في بيان مفهوم العدول، ومفهوم الائتلاف، وأنواع الأحوال المخبر عنها في القرآن، ثم مبحث آخر للدراسة التطبيقية للعدول في الخطاب القرآني وائتلافه مع أحوال المخبر عنه، وفيه مطلبان: المطلب الأول: الأحوال الثابتة للمخبر عنه، والمطلب الثاني: أحوال المخبر عنه الطارئة (العوامل النفسية)، ثم الخاتمة والمراجع.

أسأل الله أن ينفع بهذا البحث كاتبه وقارئه.

المبحث الأول

التأطير النظري لمصطلحات البحث ومفاهيمه

مفهوم العدول:

حين نرجع إلى مفردة (العدول) في المعاجم نجد أن معناها يدور حول الميل والخروج عن الأصل، ففي كتاب العين للخليل: ((العدل: أن تعدل الشيء عن وجهه فتميله، عدلته عن كذا، وعدلت أنا عن الطريق))[١] وفي اللسان:((عدل عن الشيء يعدل عدلًا وعدولًا: حاد، وعن الطريق: جار، وعدل إليه عدولًا: رجع، وما له معدِل، ولا معدول أي: مصرف، وعدل الطريق: مال))[٢].

أما على الجانب الاصطلاحي فنجد أن العدول مصطلح عام، يتداخل مع مفاهيم بلاغية متعددة لدى الأوائل، مثل: الالتفات، والخروج عن مقتضى الظاهر، والمجاز، بمفهومه العام لدى الأوائل- الذي يعني: التعبير بطرق مختلفة، والانتقال من صيغة في التعبير إلى صيغة أخرى- ومفهومه الخاص- الذي يعني الانتقال من الحقيقة إلى المجاز- والاستدراك، والاعتراض، وغيرها من الأبواب التي يبحثها البلاغيون مما يخالف فيها الباب القاعدة النحوية المثالية، وكذلك يتداخل مع مترادفات لدى المحدثين الذين نقلوا المصطلح عن الدراسات الأسلوبية الغربية وغيرها، فجعلوه مرادف عدة مفردات، مثل: الانزياح، والخرق، والانحراف، والتجاوز، والانتهاك وغيرها، مما يرد في سياق الدراسات الأسلوبية المعاصرة[٣]،

---

(١) الخليل بن أحمد، معجم العين، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية- بيروت، ط الأولى، ١٤٢٤هـ،(مادة:عدل).

(٢) ابن منظور: لسان العرب، طبعة دار إحياء التراث- بيروت، الطبعة الثالثة، (مادة: عدل)

(٣) غير أن مفردة (العدول) أوفق للاستعمال في جانب الدراسات البلاغية القرآنية؛ لكونها وردت في مفردات الأوائل في شروحاتهم، يقول ابن جني في باب يراد المعنى المراد بغير=

مما يعني: ((ما يحدثه المنشئ بكلامه من خرق لسنن اللغة))[١].

بيد أن هذا العدول أو الخرق لسنن اللغة هو عدول أسلوبي، اكتسب في الاستعمال قدرًا من الاطراد، رقى بهما إلى مرتبة الأصول التي يقاس عليها[٢]، حيث إن ذلك العدول الأسلوب يتكئ على قرائن ومسوغات تسمح له بالخروج عن

=اللفظ المعتاد : ((وكان أحدهم إذا أورد المعنى المقصود بغير لفظه المعهود كأنه لم يأت إلا به، ولا عدل عنه إلى غيره؛ إذ الغرض فيهما واحد، وكل واحد منهما لصاحبه مرادف)) ابن جني، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، ١٣٧٢هـ ٤٦٨/٢. ويقول ابن أبى الإصبع فى باب ائتلاف اللفظ مع المعنى: ((وتلخيص معنى هذه التسمية أن تكون ألفاظ المعنى المطلوب ليس فيها لفظة غير لائقة بذلك المعنى، ومثال ذلك قوله سبحانه: " إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب " ، فعدل سبحانه عن الطين الذي أخبر فى كثير من مواضع الكتاب العزيز أنه خلق آدم منه، منها قوله تعالى: " إنى خالق بشراً من طين " ، وقوله سبحانه حكاية عن إبليس: "خلقتنى من نار وخلقته من طين "فعدل عز وجل– وهو أعلم– عن ذكر الطين الذي هو مجموع التراب والماء إلى ذكر مجرد التراب؛ لأنه أدنى العنصرين، وأكثفهما لما كان المقصود مقابلة من ادعى فى المسيح الإلهية بما يصغر أمر خلقه عند من ادعى ذلك، فهذا كان الإتيان بلفظة التراب أمتن بالمعنى من غيرها من العناصر، ولو كان موضعه غيره لكان اللفظ غير مؤتلف بالمعنى المقصود)) ابن أبي الإصبع، تحرير التحبير، تحقيق: حفني محمد شرف، لجنة إحياء التراث– مصر، ص:١٩٤.ويقول ابن رشيق في معرض حديثه عن الالتفات، وتداخل مفهومه لدى العلماء مع مصطلحات أخرى: ((باب الالتفات وهو الاعتراض عند قوم، وسماه آخرون: الاستدراك، حكاه قدامة، وسبيله أن يكون الشاعر آخذًا في معنى، ثم يعرض له غيره، فيعدل عن الأول إلى الثاني، فيأتي به، ثم يعود إلى الأول من غير أن يخل في شيء)) ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه نقده، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل– بيروت، ٤٥/٢، ولكون الألفاظ الأخرى المرادفة مثل: الخرق، والانتهاك، وغيرها قد لا تناسب مقام القرآن ومصدره الإلهي.

(١) عبد الله صولة، الحجاج في القرآن، طبعة دار الفارابي –بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠١، ص:١٧٠.

(٢) تمام حسان، البيان في روائع القرآن (دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني) عالم الكتب– مصر، ط: الأولى، ١٤١٣هـ، ص:٣٤٧

الأصل، ومقامات يستند عليها في توجيه هذا العدول، الذي ينتج عنه عند بيان مسوغات هذا العدول، ما له من رقي في الأسلوب البليغ، جعل توظيفه للأحوال مطابقة للكلام من وجه المقام.

وفي الدراسات الأسلوبية المعاصرة اعتنت دراسة الألفاظ من جانبين، وعليهما مدار تعريف الأسلوب، وهما: مصطلح العدول، وهو مصطلح الأسلوبيين خاصة الذي يحددونه – كما مر– بما يحدثه المنشئ في كلامه من خرق لسنن اللغة، ومصطلح الاختيار، وهو مصطلح اللسانيين خاصة، ومن تعريفاته: ما ينشئه المتكلم بأن يختار تباعًا عناصر كلامه من المواد الجدولية المتاحة له في كل نقطة من نقاط خطابه، على أساس أن اللغة عبارة عن قائمة هائلة من الإمكانات المتاحة للتعبير. وهذان المفهومان–العدول والاختيار– تعرضا للنقد عبر الدراسات الأسلوبية ومدى نجاعة العمل بهما، وما المعيار الذي من شأنه أن يحدد المقياس للعدول أو الاختيار، ورغم هذه المطاعن فإن كثيرًا من الدراسين قد اعتمد عليهما في رصد حركة الكلمة وانتخابها في الخطاب القرآني؛ لما لها من خصائص اقتضائية وتقويمية وتداولية، ومع وجود التقابل بين المصطلحين إلا أن الفرق بين المصطلحين مهما حمل من سمات سيبقى التلازم بين هذين المصطلحين، وغياب الفرق الواضح بينهما، وهذا يعود إلى أمور، منها: أن كل اختيار – إذا حصل من المتكلم– فهو يؤدي لا محالة إلى قيام العدول، حيث يُبنى على الاختيار لبعض العناصر اللغوية عدول عن العناصر الأخرى[1].

(١) ينظر: الحجاج في القرآن: ١٧٠، ١٧١. والاختيار لدى المعاصرين يقابله ما لدى الأوائل من اهتمامهم بدراسة القول بالترادف من عدمه، ووقوفهم على اختيار لفظٍ في القرآن دون غيره الذي يحمل معناه، وقد سماه ابن بي الإصبع (تنكيتًا) وعرفه بقوله: ((هو أن يقصد المتكلم إلى شيء بالذكر دون غيره مما يسد مسده؛ لأجل نكتة في المذكور ترجح مجيئه=

العدول من التنزيه إلى مرتبة البيان:

جاءت فكرة العدول بعد أن أسس العلماء قواعد اللغة والمحددات التي تقنن المفردات والتراكيب، فوجدوا في منجز الخطاب القرآني، وكذلك النصوص النثرية والشعرية التي تكلم به العربي الأول ما يتعارض مع القاعدة القياسية التي قعدوها، فثمة مفردات وتراكيب لا تطرد مع القاعدة والتقنين للغة؛ حيث إن النص القرآني يتعالى على القاعدة اللغوية التي ضبطها اللغوي، فكان هذا الأمر داعيًا إلى توجيه هذا النص المخالف لقاعدتهم، فجاءت الدراسات التي تعنى بالعدول عن القاعدة والتسبيب لهذا العدول، في جوانب يبحثها النحوي من باب التوسع في اللغة أو الضرورة الشعرية – كما جاء عند سيبويه ومن بعده من اللغويين– أو من باب المجاز بمفهومه العام– الذي لا ينحصر في كونه ضد الحقيقة– الذي يعني الطرق التي يسلكها القرآن في تعبيراته[١]، وتتضمن تلك الطرق: تداخل الضمائر وتبادلها، واختلاف أوجه الإعراب والقراءات، واستعمال اللفظ في غير موقعه ومخالفة ظاهر القول، والزيادة والنقصان في تركيب الكلام، والنقل والإلحاق الدلالي وغيرها[٢]، وكذلك ما يبحثه البلاغيون في مسائل علم المعاني والبيان والبديع من الأسرار البلاغية خلف هذا العدول ، حتى أصبحت كثير من الأبواب البلاغية تقوم عليه، كما نجد ذلك في مباحث علم البيان في الحقيقة والمجاز،

=على سواه)) ابن أبي الإصبع المصري، بديع القرآن، تحقيق: حفني محمد شرف، نهضة مصر للطباعة، ص: ٢١٢. وسماه الزركشي مشاكلة اللفظ للمعنى، ينظر: بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن: تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث– القاهرة، ٣/ ٣٧٨.

(١) ينظر: أبو عبيدة، مجاز القرآن، علق عليه: فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي –مصر، ١٨/١.

(٢) ينظر: محمد العمري، البلاغة العربية (أصولها وامتداداتها)، أفريقيا الشرق، المغرب، الطبعة الثانية، ٢٠١٠م، ص: ٩٧.

وكذلك في علم المعاني وأحكام المسند إليه والمسند، والإسناد الخبري، مثل: التقديم والتأخير، والحذف والذكر، والتعريف والتنكير، والأغراض التي تخرج فيها مباحث الإنشاء عن مقتضى الظاهر، مما تستوعبه فكرة النظم، وما يتصل بهذه التراكيب المخصوصة التي عدلت عن الأصل بعدما انسجمت مع الأغراض التي يؤمها المتكلم.

لقد أصبح العدول لدى البلاغيين يتجاوز دراسة اللُّغويّ – الذي يَعُدُّ خروج المفردة أو التراكيب عن حدود القاعدة ضرورة شعرية، أو شذوذًا، أو لغة من اللغات الأخرى، أو وجهًا من أوجه القراءات– إلى أن يصبح العدول والتوسع اللغوي أحد أوجه البيان التي يقصدها المتكلم، ويوظفها في مطابقة كلامه لمقتضى الحال، وهي مثار الباحث اللغوي في تدوين الأسرار البلاغية خلف هذا العدول، فانتقل هذا العدول من الضرورة والمخالفة اللغوية إلى أن يصبح وجهًا بلاغيًّا له أسراره وجمالياته.

إن من أهم الدواعي التي جعلت البلاغيين الأوائل يبحثون في توجيه هذا العدول هو ما حملوه على عواتقهم من دفاع عن القرآن في وجه المشككين الذين حاولوا التشكيك في انسجام النص القرآني، وإظهار مخالفة بعض الآيات للقواعد العربية، والاختلاف بين المفسرين في إثبات بعض الحروف، وإبدالها بأخرى، وكيف يكون إنزال القرآن للهدى والبيان، ويبنى على المتشابه، كما يقول ابن قتيبة في معرض عرضه مطاعن الطاعنين في القرآن: ((وقالوا: ماذا أراد بإنزال المتشابه من أراد لعباده الهدى والبيان، وتعلقوا بكثير منه لَطُفَ معناه لما فيه من المجاز لمضمر غير مذكور، أو محذوف من الكلام متروك، أو مزيد فيه يوضح معناه حذف الزيادة، أو مقدم يوضح معناه التأخير، أو مؤخر يوضح معناه

التقديم، أو مستعار أو مقلوب، وتكلموا في الكناية التكرار))[١] فكانت هذه المطاعن سببًا للبحث في هذه المسائل التي عدلت عن القاعدة العربية نحو المجاز اللغوي الواسع وكذلك المجاز البلاغي (ضد الحقيقة) فأثمرت هذه المباحث بيان جماليات نقل العدول من البحث في بيان تنزيه القرآن من الاختلاف والتباين والدفاع عن شبه المشككين في تماسك القرآن إلى إظهار المزية البيانية والأسرار البلاغية خلف هذا العدول.

أنواع العدول:

إن عدول المتكلم في بيانه يخضع يعود إلى أمرين اثنين: الأول: عدول لغوي، وهو ما يقع داخل النص إما على وجه المفردة، من اختيار لفظة دون غيرها، أو صيغة دون أخرى، أو حرف دون حرف، مما هو عدول عن اللفظة الأصل في اللغة المثالية. وإما على وجه التركيب، باختيار أسلوب دون آخر، من تقديم أو تأخير أو حذف أو ذكر، أو تعريف أو تنكير، أو غيرها مما يتصل بالعدول في تراكيب الجمل حين يخالف هذا التركيبُ التركيبَ اللغوي المثالي، الثاني: عدول مقامي، وهو ما يختاره المتكلم من الأساليب التي في ظاهرها عدول عن مقتضى الظاهر، ومخالف له، لكن المتكلم عدل عما يناسب المقام الظاهر إلى مقام آخر قصده في خطابه؛ مما يجعل المخاطب يبحث عن هذا الخرق للعدول، وسببه، والحالة التي نزل بها المتكلمُ المخاطبَ منزلة غيره؛ لأمر يعود إلى اقتضاء أراده المتكلم، وضمان هذا العدول يعتمد على مبدأ التعاون بين المتخاطبين، ومدى العلاقة المشتركة بينهما وتوظيفها في مبدأ الإفادة وبيان القصد، وهو ما يعتمد على الاستلزام الحواري بينهما في توجيه العدول إلى أن يخرج من الخلل المقامي إلى الارتقاء نحو البيان الإبداعي.

---

(١) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، المكتبة العلمية، ص:٣٢.

أما أنواع العدول من حيث الصياغة والتركيب فينقسم قسمين: العدول الكمي، والعدول النوعي، فالعدول الكمي هو: ما يعدل في الجملة نحو الزيادة أو النقص؛ لإفادة معنى، أو لمناسبة الإيجاز، أما العدول النوعي فهو العدول باللفظ أو التركيب من تعبير إلى آخر، مثل: العدول بالخبر إلى الإنشاء، أو التعبير بالجملة الفعلية إلى التعبير بالجملة الاسمية، وهذا ما يكون في الجملة، ويكون كذلك في الحرف واللفظ المفردة، مثل: العدول من الصفة إلى اسم الفاعل، والعدول من اللفظ الأشهر إلى اللفظ الأقل استعمالًا، وهذا العدول النوعي هو الأكثر في القرآن، وغيرها [١].

مفهوم الائتلاف:

جاء الائتلاف لدى اللغويين في قواميسهم وتعريفاتهم اللغوية بمعنى الاجتماع والاتفاق، يقال: ائتلف الشيء: أَلِف بعضه بعضًا، قال العلوي: ((وهو الافتعال من قولهم: ألف الخرز بعضها إلى بعض، إذا جمعها))[٢] .

وعلى المستوى الاصطلاحي البلاغي فإن من أوائل من أشار إلى مصطلح الائتلاف قدامة بن جعفر، حين عرف الشعر وبناه على الأركان الأربعة: الوزن، والقافية، واللفظ، والمعنى، وتولد من هذه الأقسام العلاقات بينها، فذكر ائتلاف اللفظ مع المعنى، وائتلاف اللفظ مع الوزن، وائتلاف المعنى مع الوزن، وائتلاف المعنى مع القافية.[٣]، وأضاف بدر الدين بن مالك في المصباح، والعلوي في

(١) ينظر: الحجاج في القرآن، ص: ٢٤٢، ٢٤٩.

(٢) العلوي، الطراز، مطبعة المقتطف– مصر، ١٣٢٣هـ. ٣/ ١٤٤.

(٣) ينظر: قدامة بن جعفر، نقد الشعر، طبعة الجوائب، قسطنطينية، الطبعة الأولى، ١٣٠٢، ص: ٥٥– ٦٤.

الطراز، والسبكي في عروس الأفراح: ائتلاف اللفظ مع اللفظ، وائتلاف المعنى مع المعنى[١].

وفي تتبع المصطلح لدى البلاغيين نجدهم تارة يجعلونه نوعًا مستقلا بذاته، مثل: ائتلاف اللفظ والمعنى، وائتلاف اللفظ مع اللفظ، وائتلاف المعنى مع المعنى، وائتلاف اللفظ مع الوزن، وائتلاف المعنى مع القافية، كما نجده عند قدامة بن جعفر في نقد الشعر[٢]، وكذلك عند ابن أبي الإصبع في تحرير التحبير[٣] وغيرهم، وتارة أخرى يعبرون عن مفهومه بأبواب أخرى تشترك مع الائتلاف بالمفهوم، مثل: مراعاة النظير، والتوفيق، والتناسب، والمؤاخاة، فابن حجة الحموي يسمي مراعاة النظير ائتلافًا، وتناسبًا، وتوفيقًا، ومؤاخاة؛ إذ يقول في تعريف مراعاة النظير: ((وهذا النوع – أعني مراعاة النظير– يسمى التناسب، والائتلاف، والتوفيق، والمؤاخاة، وهو في الاصطلاح أن يجمع الناظم أو الناثر أمرًا وما يناسبه مع إلغاء ذكر التضاد؛ لتخرج المطابق، وسواء كانت المناسبة لفظًا لمعنى، أو لفظًا للفظ أو معنى لمعنى، إذ القصد جمع شيء إلى ما يناسبه من نوعه أو ما يلائمه من أحد الوجوه))[٤]. ويقول المدني عن مراعاة

---

(١) ينظر: بدر الدين بن مالك، المصباح، حققه: حسني عبد الجليل يوسف، ص: ٢٥٢؛ والطراز، ٣/ ١٤٤؛ والسبكي، عروس الأفراح، تحقيق خليل إبراهيم خليل، دار الكتب العلمية– بيروت، ١٤٢٢هـ، ٤/ ٤٠٨. وينظر: أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، طبعة الدار العربية للموسوعات– بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ، ١/ ١١-٣٠.

(٢) ينظر: نقد الشعر، ص: ٥٥– ٦٤.

(٣) تحرير التحبير، ص:٢٢١-٢٢٣.

(٤) ابن حجة الحموي، خزانة الأدب وغاية الأرب، دار ومكتبة الهلال – بيروت، ط الأولى، ١٩٨٧، ص:٢٩٣/١.

النظير:((هذا النوع – أعني مراعاة النظير– سماه قوم بالتوفيق، وآخرون بالتناسب، وجماعة بالائتلاف، وبعضهم بالمؤاخاة، قالوا: هو أن يجمع المتكلم بين أمر وما يناسبه، لا بالتضاد سواء كانت المناسبة لفظًا لمعنى، أو لفظًا للفظ، أو معنى لمعنى، إذ القصد جمع شيء وما يناسبه من نوعه، أو ملاءمته من أحد الوجوه. انتهى.

ولا يخفى أن هذا التفسير يدخل فيه ائتلاف اللفظ مع المعنى، وائتلاف اللفظ مع اللفظ، وائتلاف المعنى مع المعنى، وكل هذه الأقسام عدّه أرباب البديعيات نوعًا برأسه، ونظموا له شاهدًا مستقلا، وجعلوه مغايرًا لهذا النوع، مع أنهم مثلوا لائتلاف اللفظ بما مثلوا به لمراعاة النظير بعينه))[1].

وفي البلاغة القرآنية نجد أنهم يضيفون على ائتلاف اللفظ مع المعنى، واللفظ مع اللفظ، وائتلاف المعنى مع المعنى، ائتلاف الفاصلة القرآنية مع سائر الآية، وما فيها من المناسبة بين ختم الآية، وما سبقها من معانٍ وألفاظ[2].

وحين أتأمل حديثهم عن الائتلاف أجد أن أغلب حديثهم عن الائتلاف داخل السياق النصي، غير أن ثمة إشارات لديهم يثبت من خلالها بحث العلاقة لديهم بين تناسب النص مع ما حوله من سياقات خارجية، وظروف ملابسة للنص، وهذا ما أجده في حديثهم عن ائتلاف اللفظ مع المعنى أو ائتلاف المعنى مع المعنى، فمما جاء في ائتلاف اللفظ مع المعنى عندهم، وهو متصل بالسياق الخارجي: ما يورده البلاغيون والنقاد فيما جاء عن بشار بن برد من تفاوت في

---

(١) علي صدر الدين المدني، أنوار الربيع، تحقيق: شاكر هادي شكر، مطبعة النعمان، الطبعة الأولى، ١٣٨٨هـ، ١١٩/٣.

(٢) ينظر: تحرير التحبير: ص:٢٢٤. وابن أبي الإصبع، بديع القرآن، تحقيق حفني محمد شرف، نهضة مصر للطباعة، ص: ٨٩.

شعره، وتسبيبه لهذا التفاوت بائتلافه لمن قيلت له الأبيات، ووصفت بها، فقد أورد المرزباني في الموشح هذا الخبر حين سئل بشار، فقيل له: ((يا أبا معاذ، إنك لتجيء بالأمر المهجن، قال : وما ذاك؟ قلت : إنك تقول:

إذا ما غضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس أو مطرت دمًا

إذا ما أعرنا سيّدا من قبيلة ذرى منبر صلّى علينا وسلّما

ثم تقول:

ربابة ربّة البيت تصبّ الخلّ في الزيت

لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت

قال :كلّ شيء في موضعه، وربابة هذه جارية لي، وأنا لا آكل البيض من السّوق، فربابة هذه لها عشر دجاجات وديك، فهي تجمع عليّ هذا البيض وتحظره لي، فكان هذا من قولي لها أحبّ إليها وأحسن عندها من: (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل) ... إنما أخاطب كلاً بما يفهم))[١].

والذي يريده الباحث في هذه الدراسة هو الإشارة إلى وجه جديد يتفرع من وجوه الائتلاف، وهو الائتلاف بين اللفظ الذي جاء به الخطاب القرآني على وجه العدول اللغوي أو المقامي، وحال ذلك المخبر عنه الذي ذكر الله أوصافه وأحواله؛ ليصبح هذا التناسب داخلًا في مجمل مفهوم الائتلاف لدى الأوائل حين عمموا الائتلاف في قولهم: (جمع شيء إلى ما يناسبه من نوعه أو ما يلائمه من أحد

(١) المرزباني، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، طبعة دار الكتب العلمية– لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ، ص: ٢٨٩، وأورده صاحب أنوار الربيع في الائتلاف، ٢١٨/٦، وكذلك جاء ذكره في باب ائتلاف اللفظ مع المعنى في معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، ١/ ٢٠، ٢١.

الوجوه). وهذا ما سيقوم به الباحث من كشف لأسرار هذا العدول في الخطاب القرآني، وتتبع الائتلاف بينه وبين حال المخبر عنه؛ ليثبت من خلال البحث كشف وجه من وجوه الائتلاف بين النص وأحد عناصر السياقات الخارجية، وهو المخبر عنه[1].

حال المخبر عنه.

المخبر عنه: هو تلك الشخصية المحورية التي تدور حولها الأخبار السردية البسيطة، أو الأحداث في القصة القرآنية المتكاملة، أو ضرب المثل القرآني، أو ذكر الأوصاف الخَلْقية أو الخُلقية لتلك الشخصية ترغيبًا فيها أو ترهيبًا، ومدحًا لها أو ذمًّا، وسواء كانت هذه الشخصية مفردة، أو كانت طائفة معينة تحكمها سمات واحدة- مثل: المؤمنين، المنافقين، الرجال، النساء، وغيرهم- تسمح للباحث أن يكشف التناسب بينها وبين الخطاب العدولي في القرآن المناسب لها.

---

(١) في الدرس الحديث يتقاطع مصطلح الائتلاف مع بعض المصطلحات التي اصطفاها المترجمون، للتماسك النصي والدراسات الخطابية، فمحمد خطابي يختار له مصطلح (الانسجام)، وتمام حسان يختار له (الالتحام)، ومحمد مفتاح يختار له (التشاكل)، وسعد مصلوح، ومحمد العبد يختاران له مصطلح (الحبك)، وثمة علاقة لدى المعاصرين بين الاتساق والانسجام، بيد أن الأول يختص بالترابط النصي داخل النص، فهو يهتم بمظاهر الاتساق اللغوي الداخلية، فبعده لساني دلالي، أما الانسجام فيمتاز بربط النص بسياقاته الخارجية؛ حيث إنه يعنى بالبعد التأويلي للخطاب، فالعلاقات بين الأقوال يمكن الحصول عليها عن طريق الاستدلال إما بمقدمة ضمنية، أو بفرضية سياقية، وهذا المفهوم هو الأقرب لمراد الباحث في ائتلاف العدول مع سياق خارجي وهو حال المخبر عنه. (ينظر: فان ديك، النص والسياق، ترجمة عبد القادر قنيني، طبعة أفريقيا الشرق، ص: ١٤٠؛ وكذلك جاك موشلر- آن ريبول، القاموس الموسوعي للتداولية، ترجمة عدد من الباحثين، المركز الوطني للترجمة- تونس، ص: ٥٠٠، ٥٠١).

لقد جاء المخبر عنه في القرآن في سياق ذكر أحداثه حسب المقاصد القرآنية، والموضوعات المناسبة لتوظيفه في الخطاب، دون أن يبرز القرآن العنصر الذاتي للشخصية؛ إذ ترد تلك الشخصيات والفئات المخبر عنها للتأسي بها في مواطن الخيرية، والتحذير منها في المواطن الشريرة، وهذا ما جعل القرآن لا يعتني برسم معالم الشخصية والعمق في وصفها وما تمتاز به، سوى ما يتناسب مع الغرض المنشود في تلك الأحداث.

وحين نتأمل المخبر عنه في القرآن، فإننا نجده على النحو الآتي:

- مخبر عنه معين فردي معروف، مثل: شخصية نوح وإبراهيم وموسى عليهم السلام، وكذلك الشيطان، وفرعون، وقارون، وغيرهم.
- مخبر عنه فردي غير محدد، مثل: الإنسان، النفس، (رجل) في سياق الأمثال.
- مخبر عنه فردي معين، لكن جاءت الإشارة إليه بالوصف لا بالاسم، مثل: رجل من أقصى المدينة، عفريت من الجن، الذي عنده علم من الكتاب، وغيرهم.
- مخبر عنه جنس معين، كأن يكون الجامع لهم العرق والنسب، مثل: بني إسرائيل، أصحاب القرية، الأنصار، أصحاب الجنة، أو يكون الجامع لهم العقيدة، مثل: الذين آمنوا، والمنافقين، والكفار، واليهود، والنصارى، وغيرهم[١].

(١) ومع هذا التنوع فيمن أخبر عنه بين التحديد الشخصية والإشارة إليها دون تحديد لمعالمها، فإن هذا المجال لا يسمح لمن ينزع نحو القول بوجود شخصيات أسطورية، وأنها على وجه التمثيل لا الحقيقة، وهذا الأمر درسه أصحاب القصص القرآني وناقشوه، فليرجع إليه من أراد الاستزادة حوله، ينظر: القصص القرآني، إيحاؤه ونفحاته، فضل عباس؛ القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، عبد الكريم الخطيب، وغيرهما.

وأما أحوال المخبر عنه التي ينشد الباحث كشف التناسب بينه وبين العدول في الخطاب القرآني فهي على نوعين:

- أحوال ثابتة، وهي ما يمتاز بها من أخبر عنه في صفة لازمة له لا تتغير، مثل: المعتقدات، والأخلاق والسلوك، واختلاف الجنسين، والمقامات الاجتماعية.
- أحوال متغيرة، وهي المواقف النفسية التي يمر بها الإنسان حين انفعاله، وهو فيها غير دائم عليها، فهي لا ترتبط بجنس معين أو فئة محددة، بل هي حالة تمر على كل شخص حسب ما يعتريه من متغيرات ومؤثرات، مثل: الحسرة، والحزن، والفرح، والحيرة، والغضب، والخوف، وغيرها، وكذلك ما يضمره المخبر عنه من مقاصد.

وعلى هذا يكون عمل الباحث في هذا المبحث: الوقوف على نوع من أسرار العدول في الخطاب القرآني ومدى ائتلافه مع أحوال المخبر عنه، سواء في أحواله الثابتة أو العوامل النفسية المتغيرة، والكشف عن تلك الألفاظ والتراكيب التي سطرت هذا الائتلاف، فدلالة الألفاظ على المعاني لها دلالتان: دلالة عامة وعبارات مطلقة– وهذه لا تخصنا في هذا البحث – ودلالة خاصة وعبارات مقيدة، دالة على معان خادمة، وهي ما تسمى بالدلالة التابعة، ((وهي التي يختص بها لسان العرب في تلك الحكاية وذلك الإخبار، فإن كل خبر يقتضي في هذه الجهة أمورًا خادمة لذلك الإخبار، بحسب المخبِر والمخبَر عنه، والمخبَر به، ونفس الإخبار، في الحال والمساق، ونوع الأسلوب: من الإيضاح والإخفاء، والإيجاز، والإطناب وغير ذلك... ثم يتنوع أيضًا بحسب تعظيمه أو تحقيره، أعني المخبر

عنه، وبحسب الكناية عنه والتصريح به، وبحسب ما يقصد من مساق الأخبار، وما يعطيه من مقتضى الحال))[١].

وهذا التنوع في الأساليب واختيار المفردات والتراكيب في الخطاب القرآني، هو ما سيتتبعه الباحث في المبحث القادم؛ من أجل إظهار جماليات ائتلاف خطاب العدول القرآني مع هذا التنوع في أحوال المخبر عنه في القرآن، وكشف هذا الاتساق بين التنوع في الأحوال المخبر عنها، وبين التنوع في تلك الأساليب التي تناسب هذا الاختلاف، مع استظهار لبلاغة إعجاز القرآن في هذا الوجه الذي يبدي عظمة الخالق في الاطلاع على السرائر لتلك النفوس المخبر عنها، وإحاطته بما يفعلون، وما يتسمون به، وما يقصدون من مقاصد ونوايا قد لا تظهر في أقوالهم، لكن يكشف الله عنها من خلال قص أخبارهم، فهو ﷻ يعلم خائنة الأعين وما تخفيه الصدور.

**

(١) الشاطبي، الموافقات، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، طبعة المكتبة العصرية– بيروت، ط الأولى،١٤٣٢هـ، ٣٧/٢.

المبحث الثاني

أحوال المخبر عنه وائتلافها مع آيات العدول

المطلب الأول: الأحوال الثابتة للمخبر عنه:

تعددت الآيات التي يخبر الله ﷻ بها عن أحوال من يصفهم، ويقص علينا خبرهم، ويصف أحوالهم، وما هم عليه من الصفات اللازمة لهم، وهي على درجات ما بين الإخبار عن أحوال المؤمنين وما هم عليه من صفات تنبئ عن إيمانهم واعتقادهم، وما يتصفون بها، أو أحوال المعاندين والمنافقين وما هم عليه من صفات تنبئ عن ضلالهم وصدهم عن سبيل الله، وتمردهم والتوائهم على أوامر الشرع، ومحاولة المخادعة لله ولرسوله ﷺ وللمؤمنين.

وهذه الصفات والمضامين التي يعبر عنها القرآن من خلال الدلالة المعنوية، لم يهمل القرآن التركيب اللغوي؛ ليجعله حاضرًا في الدلالة على تلك الصفات والمعتقدات من خلال التركيب وانتقاء الألفاظ، بيد أن الدلالة اللغوية اتسمت في هذا البحث بظاهرة العدول في اللفظ أو التراكيب؛ كي يتناسب هذا العدول مع هذه الصفات المخبر عنها لأولئك الأقوام، وسنقف على نماذج تبين هذا الائتلاف بين أحوال المخبر عنهم، وما يتسمون به من سمات، وما جاء من عدول في الخطاب القرآني.

أولًا: وفاء المؤمنين وطيبة قلوبهم وأفعالهم:

جاء ثناء الله ﷻ على المؤمنين ونواياهم وقلوبهم في آيات كثيرة، من خلال دلالة الألفاظ على المعاني، بيد أننا نجد آيات تخبر عن أحوال المؤمنين بأسلوب العدول؛ مناسبة لأحوالهم، من خلال العدول، من ذلك:

١-العدول النوعي في حروف الجر:

فمما جاء في أحوال المؤمنين قوله ﷻ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمشُونَ عَلَى ٱلأَرضِ هَونًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان:٦٣] اختار الله للإخبار عن حال مشي عباده المؤمنين حرف (في) -مع مجيء المشي في مواضع أخرى مع الحرف (على)- ليدل على نوع المشي المناسب لحال المؤمنين، حيث إن ((مشيهم يكون في لين وسكينة ووقار وتواضع، ولا يضربون بأقدامهم، ولا يخفقون بنعالهم أشرا وبطرا، ولا يتبخترون لأجل الخيلاء، كما قال :﴿ولا تمش في الأرض مرحا﴾[الإسراء: ٣٧])) [(١)] فالمشي مع (في) يدل على الفخر والخيلاء، فكأن صاحبه يدخل قدمه في الأرض عند المشي؛ لذا جاءت في سياق النهي عن المشي مرحًا، يقول الله ﷻ:﴿وَلَا تَمشِ فِي ٱلأَرضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخرِقَ ٱلأَرضَ وَلَن تَبلُغَ ٱلجِبَالَ طُولًا ﴾[الإسراء:٣٧] فربط مشي المرح والخيلاء في الأرض الذي يُظهر قوة الضرب في الأرض كأنه يخرقها، يقول الرازي: ((المشي إنما يتم بالارتفاع والانخفاض، فكأنه قيل: إنك حال الانخفاض لا تقدر على خرق الأرض ونقبها، وحال الارتفاع لا تقدر على أن تصل إلى رؤوس الجبال، والمراد التنبيه على كونه ضعيفًا عاجزًا فلا يليق به التكبر))[(٢)]. وعند قوله ﷻ:﴿وَلَا تُصَعِّر خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمشِ فِي ٱلأَرضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُختَالٍ فَخُورٍ﴾[لقمان:١٨] يقول البغوي: ((قيل: ذكر ذلك؛ لأن من مشى مختالًا يمشي مرة على عقبيه، ومرة على صدور قدميه، فقيل له: إنك لن تنقب الأرض إن مشيت على عقبيك

(١) مفاتيح الغيب، الرازي، دار الفكر- بيروت، ط الأولى، ١٤٠١هـ، ٢٤/ ١٠٧.

(٢) مفاتيح الغيب، ٢٠/ ٢١٢، ٢١٣.

ولن تبلغ الجبال طولا إن مشيت على صدور قدميك))[1] ، وبهذا يظهر التناسب في العدول عند الإخبار عن حال المؤمنين نحو التعبير بحرف (في).

٢- العدول النوعي في المفردة.

يقول الله ﷻ: ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾[إبراهيم:٣٧] نلحظ في هذه الآية عددًا من ألفاظ العدول في دعاء إبراهيم عليه السلام تأتلف مع حال من أخبر عنهم من المؤمنين، فجاء اختيار كلمة (أفئدة) مفردة، نكرة، وهو عدول عن الكلمة الأشهر، وهي: القلب، ويعلل هذا الاختيار البقاعي، فيقول: ((ولما كان اشتغالهم بالعبادة، وكونهم في ذلك الوادي، أمرين بعيدين عن أسباب المعاش، تسبب عنه قوله :﴿فاجعل أفئدة﴾ أي قلوبا محترقة بالأشواق ﴿من الناس﴾ أي من أفئدة الذين هم أهل للاضطراب، بكون احتراقها بالشوق مانعا من اضطرابها))[2]. فالاحتراق والشوق من سمة الفؤاد التي تناسب أحوال المؤمنين الذين يشتاقون إلى المجيء لهذا البيت المرة تلو الأخرى، وهذا الائتلاف لن يفيد لو كان التعبير بلفظ (القلب)، والتنكير هنا لتتناول بعض الأفئدة فالمؤمنون بعض من الناس، فـ(مِن) هنا ((تفيد التبعيض، والمعنى: فاجعل

(١) البغوي، معالم التنزيل، حققه: محمود النمر، عثمان جمعة، سليمان الحرش، دار طيبة للنشر- الرياض، ١٤١١هـ ،٥/٩٣.

(٢) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي- القاهرة، ١٤٠٤هـ، ١٠/٤٢٧.

أفئدة بعض الناس مائلة إليهم. قال مجاهد: لو قال: أفئدة الناس لازدحمت عليه فارس والروم والترك والهند))[١].

وكذلك اختيار لفظ: ﴿ تَهوِيٓ﴾ والعدول عن (تجيء أو تزور)؛ لأن القلوب التي يريدها إبراهيم عليه السلام أن تأتي إلى البيت تحمل الشوق والإسراع والحب؛ لذا هذه الأفئدة السائرة إلى الله التي تحمل الشوق والمحبة هي التي تقود المؤمن إلى البيت الحرام، حتى كأن المسرع هو الفؤاد لا الجسد[٢]. ف((تسرع نحوهم برغبة وشوق إسراع من ينزل من حالق؛ وزاد المعنى وضوحًا وأكده بحرف الغاية الدال على بعد لأن الشيء كلما بعد مدى مرماه اشتد وقعه فقال :﴿إليهم﴾))[٣]. فجاء العدول باللفظ إلى المجاز على سبيل الاستعارة المكنية لبيان درجة الشوق إلى مكة ومدى سرعة الوصول إليها، في اختيار لهذا المؤتلف مع أفئدة هذه الفئة المؤمنة التي لا تطيق النأي عن بيت الله الحرام.

٣–العدول النوعي في التراكيب:

حين عدّد الله ﷻ صفات المؤمنين، نوّع في التعبير عن هذه الصفات وتفنن في التراكيب؛ إذ ذكر من صفات المؤمنين العفو عند الغضب، يقول الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلإِثمِ وَٱلفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُم يَغفِرُونَ ﴾[الشورى:٣٧] فعدل في جواب الشرط من الفعل إلى الجملة الاسمية، وبنى الجملة على أسلوب القصر عن طريق ضمير الفصل، فقال ﷻ : ﴿هُم يَغفِرُونَ﴾؛ دلالة على أن من أخص

---

(١) مفاتيح الغيب، ١٤٠/١٩،و(من) هنا اختلف المفسرون في توجيهها بين التبعيضية والبيانية، ينظر: التحرير والتنوير، ٢٤١/١٣

(٢) ينظر: ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر– تونس، ١٩٨٤م، ٢٤١/١٣.

(٣) نظم الدرر، ٤٢٧/١٠.

أوصافهم المغفرة، وكونها مستقرة عندهم، ولكونها صعبة المنال جعلها مقصورة عليهم ﴿هُم يَغفِرُونَ﴾ ودلالة الجملة الاسمية على تأصلها في أوصافهم، يقول الزمخشري عند ﴿هُم يَغفِرُونَ﴾: ((أي: هم الأخصَّاء بالغفران في حال الغضب، لا يغول الغضب أحلامهم كما يغول حلوم الناس، والمجيء بهم، وإيقاعه مبتدأ، وإسناد (يَغْفِرُونَ) إليه لهذه الفائدة))[1]. وأضاف ابن عاشور في سر هذا العدول ودلالته على حضور صفة الغفران لدى المؤمنين وتكررها، فبيّن أن تقديم المسند إليه هنا على الخبر الفعلي في جملة:﴿هُم يَغفِرُون﴾ ((لإفادة معنى التقوى، وتقييد المسند بـ(إذا) المفيدة معنى الشرط؛ للدلالة على تكرر الغفران كلما غضبوا))[2] ، وكذلك العدول هنا في الفعل ﴿هُم يَغفِرُون﴾ من الماضي – الذي يناسب سياق فعل الشرط: غضبوا –إلى المضارع (يغفرون) لدلالة تجدد المغفرة لديهم كلما غضبوا؛ وهنا يفيد العدول رسوخ صفة المغفرة لدى المؤمنين، وتجددها كلما غضبوا.

ومن العدول النوعي في التراكيب:

في قوله ﷻ﴿وَجَآءَ مِن أَقصَا ٱلمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسعَى﴾ [يس:٢٠]، وفي قوله :ﷻ ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّن أَقصَا ٱلمَدِينَةِ يَسعَىٰ﴾[القصص:٢٠] تشابه لفظي بين الآيتين، أما آية القصص فعلى الأصل؛ حيث تقدم الفاعل على الجار والمجرور، وهذا الأصل في كون الفاعل يلي الفعل– وثمة أوجه بيانية يذكرها المفسرون ليس هذا مجال الحديث عنها– أما آية (يس) ففي تركيبها عدول عن آية القصص، حيث

(١) الزمخشري، الكشاف، تعليق ودراسة عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، مكتبة العبيكان– الرياض، ط الأولى، ١٤١٨هـ، ٤١٥/٥.

(٢) التحرير والتنوير، ١١١/٢٥.

قدم الجار المجرور على الفاعل. فهل ثم ائتلاف بين هذا التقديم وحال المخبر عنه، وهو مؤمن أصحاب القرية؟

ذكر العلماء عدة أوجه تدل على الائتلاف بين حال انتشار الإيمان في المدينة، ونظم الآية، منها:

– أن فائدة تقديم (من أقصى المدينة) يعود إلى حال انتشار الإيمان في أطراف المدينة مع ((الإشارة إلى أن الإيمان بالله ظهر في أهل أطراف المدينة قبل ظهوره في قلب المدينة، لأن قلب المدينة؛ مسكن الأغنياء وأصحاب الجاه والسلطان، وأما أطرافها فهو موطن الضعفة فالإيمان يسبق إليه الضعفاء؛ لأنهم لا يصدهم عن الحق ما فيه أهل السيادة من ترف وعظمة؛ إذ المعتاد أنهم يسكنون وسط المدينة))[١].

– قدم الجار والمجرور على الفاعل الذي حقه التقديم؛ بيانًا لفضل الرجل المؤمن، وعظم منزلته، وكونه دخل في الإيمان ودافع عنه مع كونه يسكن أقصى المدينة؛ إذ هداه الله ﷻ مع بعده عنهم، وإن بعده لم يمنعه عن ذلك؛ لذا عبر بالمدينة هنا بعد التعبير بالقرية إشارة إلى السعة، يقول البقاعي: ((ولما كان السياق لأن الأمر بيد اللهﷻ؛ فلا هادي لمن أضل، ولا مضل لمن هدى، فهو يهدي البعيد في البقعة والنسب، إذا أراد؛ ويضل القريب فيهما إن شاء، وكان بعد الدار ملزوما في الغالب لبعد النسب، قدم مكان المجيء على فاعله، بيانًا لأن الدعاء نفع الأقصى، ولم ينفع الأدنى، فقال :﴿وجاء من أقصى﴾، أي: أبعد – بخلاف ما مر في سورة القصص– ولأجل هذا الغرض عدل عن التعبير بالقرية

(١) ينظر: المرجع السابق، ٢٢/٢٦٥.

كما تقدم، وقال :﴿المدينة﴾؛ لأنها أدل على الكبر، المستلزم لبعد الأطراف، وجمع الأخلاط))[1].

– لبيان صدق الرجل المؤمن؛ وكونه ليس من قرابة المرسلين ولا ممن يجاورونهم في مساكنهم، حتى يحمله القوم على التواطؤ مع الأنبياء، بل هو الأبعد في السكن، ومع هذا آثر الإيمان وصدق المرسلين، ووعظ قومه حيًا وميتًا، كما قال ابن عباس[2].

٥– العدول الكمي في التضعيف:

في قوله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الأعراف:١٧٠] أخبر عن حال المؤمنين بالكتاب والمقيمين الصلاة بلفظ عدل فيه إلى التضعيف، وهذا مما أكسب اللفظ زيادة في المبنى، والزيادة في المبنى لها دلالة على الزيادة في المعنى، فالمعنى المكتسب من هذا التضعيف هو بيان درجة هؤلاء المؤمنين في شدة تمسكهم بالكتاب وبما ورد فيه، وأن الله لا يضيع أجر تمسكهم وصلاحهم، فهذا مما يتبين فيه الائتلاف بين العدول نحو التضعيف وتصوير درجة التمسك الشديد بالكتاب، وكذلك دلالة التكرار، ولولا هذا العدول لما استقينا هذا المعنى، يقول القرطبي: ((وقرأ أبو العالية وعاصم في رواية أبي بكر "يمسكون" بالتخفيف من أمسك يمسك والقراءة الأولى أولى؛ لأن فيها معنى التكرير والتكثير للتمسك بكتاب اللهﷻ وبدينه فبذلك يمدحون. فالتمسك بكتاب الله والدين يحتاج إلى الملازمة والتكرير لفعل ذلك))[3].

---

(١) نظم الدرر، ١٠٩/١٦.

(٢) ينظر:القرطبي،الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: عبد الله التركي، مؤسسة الرسالة– بيروت،ط الأولى،١٤٢٧هـ، ٤٣٢/١٧.

(٣) المرجع السابق،٩/ ٣٧٤. وينظر: نظم الدرر: ٤٩/٨. فقد أورد هذا المعنى نفسه.

ومما جاء في العدول الكمي في التضعيف للكلمات في وصف حال المؤمنين قوله ﷻ:﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ﴾[النجم:٣٧] حيث اختيار ﷻ للإخبار عن إبراهيم عليه السلام تضعيف الفعل (وَفَّى) مبالغة في وصف حال إبراهيم عليه السلام في وفائه؛ لذا جاء النظم بالتضعيف يقول البقاعي: ((ومدحه بقوله دالا بتشديد الفعل على غاية الوفاء :﴿الذي وفى﴾ أي: أتم ما أمر به، وما امتحن به))[(١)]. وكذلك عدل عن ذكر المفعول إلى حذفه، زيادة في الثناء على إبراهيم عليه السلام ؛ حيث إنه عليه السلام كثير الخصال النبيلة التي وفى بها، فكان الائتلاف أن يحذف المفعول؛ كي يطلق ويعمم الثناء عليه، ويشمل وفاءه المتعدد، منه: تبليغ الرسالة، والوفاء بالصبر على النار دون جزع، والوفاء بالكرم، والوفاء بالامتثال إلى أمر ذبح ابنه، والوفاء بإتمام الكلمات إلى غيرها[(٢)].

ثانيًا: اليهود وعنتهم على أنبيائهم:

جاءت آيات كثيرة كاشفة أمر اليهود وعنتهم أمام النص الشرعي، واختلافهم على أنبيائهم وإيذائهم وخذلانهم للمسلمين، وقد تبين هذا الأمر من خلال تعدد أساليب البيان القرآني، وما يختص بأمر العدول النوعي من آيات متعددة، منها:

١– العدول النوعي في الحركة الإعرابية: يقول الله ﷻ :﴿لَن يَضُرُّوكُم إِلَّآ أَذًى وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾[آل عمران:١١١]، حين نتأمل الفعل (لاينصرون) نجد أن الفعل جاء بعد حرف العطف (ثم) وقد سبقه الفعل (يولّوكم) المجزوم، بيد أن الفعل (لاينصرون) لم يجزم؛ فما سبب العدول عن الجزم؟ يجيب عن هذا العدول الزمخشري حين يقول: ((فإن قلت: هلا جزم المعطوف في قوله: ﴿ثم لاينصرون﴾؟ قلت: عدل به عن حكم الجزاء إلى حكم الإخبار ابتداءً،

(١) نظم الدرر، ٧١/١٩.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير، ١٣٠/٢٧.

كأنه قيل: ثم أخبركم أنهم لا ينصرون، فإن قلت: فأي فرق بين رفعه وجزمه في المعنى؟ قلت: لو جزم لكان نفي النصر مقيدًا بمقاتلتهم، كتولية الأدبار، وحين رفع كان نفي النصر وعدًا مطلقًا، كأنه قال: ثم شأنهم وقصتهم التي أخبركم عنها، وأبشركم به بعد التولية أنهم مخذولون منتفٍ عنهم النصر والقوة لا ينهضون بعدها بجناح ولايستقيم لهم أمر، وكان كما أخبر من حال بني قريظة، والنضير، وبني قينقاع، ويهود خيبر، فإن قلت: فما الذي عطف عليه هذا الخبر؟ قلت: جملة الشرط والجزاء، كأنه قيل: أخبركم أنهم إن يقاتلوكم ينهزموا، ثم أخبركم أنهم لا ينصرون، فإن قلت فما معنى التراخي في (ثم)؟ قلت: التراخي في المرتبة؛ لأن الإخبار بتسليط الخذلان عليهم أعظم من الإخبار بتوليتهم الأدبار))[1]. وهكذا يتبين أن العدول في الحركة الإعرابية جاء ليتناسب مع الصفة الثابتة لدى اليهود التي عمّمها القرآن في جميع أحوالهم وهي الخذلان لهم في جميع أحوالهم، ولو بقيت على الجزم لدلت على عدم النصرة في هذا المقام فقط، ولما أضافت الآية هذا المعنى الشامل الذي يدل على خبرهم وحقيقتهم حين انقطع العطف عما قبله، ليخرج من ضيق الصفة إلى سعتها.

٢- العدول النوعي في حرف العطف (ثم).

يقول الله ﷻ: ﴿لَّئِن لَّم يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِي ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب:٦٠] أخبر عن حال المنافقين الذين في قلوبهم مرض والمرجفين باختيار حرف العطف (ثم) في قولهﷻ: ﴿ثم لا يجاورونك﴾ وهو معطوف على ﴿لنغرينك﴾ ولم يكن العطف بالفاء؛ لأنه لم يقصد أنه متسبب عن الإغراء، بل كونه جوابًا للقسم أبلغ. وكان العطف بـ ثم؛ لأن الجلاء عن الوطن كان أعظم عليهم من جميع ما أصيبوا به،

(١) الكشاف، ١/ ٦٠٩، ٦١٠.

فتراخت حالة الجلاء عن حالة الإغراء؛ لأن الجلاء عن الأوطان كان أعظم عليهم، وأعظم من جميع ما أجيبوا به، فترافق حاله عن حال المعطوف عليه[١] .

يقول البقاعي عن ائتلاف حرف (ثم) مع وصف حال من أخبر عنهم: ((لما كان نزوحهم عن المدينة مستبعدًا عنهم جدًّا، وكان أعظم رتبة في أذاهم من غيره؛ لأن الإخراج من الأوطان من أعظم الهوان، أشار إليه بأداة التراخي فقال :﴿ثم لا يجاورونك فيها﴾ أي: بعد محاولتك لهم ﴿إلا قليلا﴾ أي: من الزمان بقدر ما يمكن لك المضارب، فتعظم عليهم المصائب))[٢].

٣- العدول النوعي في المفردة:

يقول الله ﷻ:﴿إِن تَمسَسكُم حَسَنَة تَسُؤهُم وَإِن تُصِبكُم سَيِّئَة يَفرَحُواْ بِهَا﴾ [آل عمران:١٢٠] .

جاء مع الحسنة المس ، ومع السيئة الإصابة: مع كون (المس) استعمل في القرآن مع الحسنة والسيئة كما في قوله ﷻ : ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ ٱلخَيرُ مَنُوعًا﴾[المعارج:٢٠، ٢١] وكذلك (الإصابة) مع الحسنة والسيئة: كما في قوله ﷻ: ﴿إِن تُصِبكَ حَسَنَة تَسُؤهُم وَإِن تُصِبكَ مُصِيبَة يَقُولُواْ قَد أَخَذنَآ أَمرَنَا مِن قَبلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُم فَرِحُونَ ﴾[التوبة:٥٠]، إلا أنه لما عدل عن الاستعمال في الموضع الواحد، فهذا مما يستدعي التأمل بحثًا عن سر هذا العدول.

لعل استعمال المس– الذي هو أدنى درجات الإصابة– مع الحسنة في سياق حزن الكفار والمنافقين بسبب حصول المؤمنين على الحسنة، وهذا إخبار عن

---

(١) ينظر: الكشاف، ٩٩/٥، وينظر: أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط في التفسير، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية– بيروت، ط الأولى، ١٤١٣هـ، ٢٤١/٧.

(٢) نظم الدرر، ٤١٣/١٥، ٤١٤.

الحالة التي هم عليها من الكره والبغض للمسلمين، فلا يريدون لهم أدنى درجة من الخير، يقول ابن المنير– في تعليقه على الكشاف حين بين الزمخشري أن المس مستعار لمعنى الإصابة وكون المعنى واحدًا–: ((يمكن أن يقال: المس أقل تمكنًا من الإصابة، وكأنه أقل درجاتها، فكأن الكلام –والله أعلم–: إن تصبكم الحسنة أدنى إصابة تسؤهم ويحسدونكم عليها، وإن تمكنت الإصابة منكم، وانتهى الأمر فيها إلى الحد الذي يرثي الشامت عنده منها، فهم لا يرثون، لكن لا ينفكون عن حسدهم ولا في هذه الحال، بل يفرحون ويسرون))[1]. وهذا ((بيان لتناهي عداوتهم إلى حد حسدوا ما نالهم من خير ومنفعة وشمتوا بما أصابهم من ضر، وشدة، وذكر المس مع الحسنة، والإصابة مع السيئة إما للإيذان بأن مدار مساءتهم أدنى مراتب إصابة الحسنة، ومناط فرحهم تمام إصابة السيئة، وإما لأن المس مستعار لمعنى الإصابة))[2].

٣–العدول النوعي في الفعل:

يقول الله ﷻ مخبرًا عن أهل الكتاب: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُم رَسُولُ بِمَا لَا تَهوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱستَكبَرتُم فَفَرِيقًا كَذَّبتُم وَفَرِيقًا تَقتُلُونَ﴾ [البقرة:٨٧]، فحين نتأمل قوله ﷻ : ﴿وَفَرِيقًا تَقتُلُونَ﴾ نجد أن الفعل يتحدث عن زمن ماضٍ بفعل مستقبل، مع أن فعل التكذيب المعطوف عليه فعل القتل جاء بزمن الماضي. فلماذا عدل عن زمن الماضي إلى المضارع؟

يورد الزمخشري هذا التساؤل، ويجلي بيان هذا الصفة وفظاعتها، وما يجب أن تكون حاضرة بفضل التجدد الذي يدل عليه المضارع، مع كونها ما زالت حاضرة

---

(١) الكشاف:١/ ٦١٧.

(٢) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (تفسير أبي السعود)، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، مكتبة الرياض الحديثة– السعودية، ٤٤٣/١.

لدى اليهود، وما تطويه أحوالهم ونواياهم وأفعالهم أمام النبي ﷺ ومحاولة قتله أكثر من مرة، يقول الزمخشري: ((لأن الأمر فظيع، فأريد استحضاره في النفوس، وتصويره في القلوب، وأن يراد: وفريقًا تقتلونهم بعد؛ لأنكم تحومون حول قتل محمد ﷺ لولا أني أعصمه منكم، ولذا سحرتموه، وسممتم له الشاة))[(١)].

فهنا العدول نحو الزمن المضارع أظهر دلالة في الإخبار عن الاستمرار لدى اليهود في اتصافهم بهذه السمة، وما تحمله نواياهم وخبثهم، وأنهم ما زالوا ينوون محاولة قتل النبي ﷺ.

٤– العدول النوعي في التراكيب:

يقول الله ﷻ: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُم حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الحشر:٢]، حيث جاء تقديم الخبر على المبتدأ(مَّانِعَتُهُم حُصُونُهُم) مؤتلفًا مع معتقدات اليهود؛ إذ إن هذا التقديم دليل على فرط وثوقهم بحصانتهم ومنعها إياهم، وفي تصيير ضميرهم اسمًا لأنْ، وإسناد الجملة إليه دليل على اعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة، لا يبالي معها بأحد يتعرض لهم أو يطمع في معازتهم، وهذه المعاني لا تحصل في قولك: وظنوا أن حصونهم تمنعهم[(٢)].

٥– العدول الكمي في التضعيف:

يقول الله ﷻ:﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢا﴾ [الجمعة:٥]، في العدول إلى تضعيف (حمّلوا) بيان للكلفة التي ظهرت من بناء هذا التضعيف وائتلافها مع الدقة في الإخبار عن حال اليهود، في كونهم ليس لديهم رغبة في حمل الأمانة، وتبليغها والعلم بها، فكأن اللفظ أعطى المعنى دلالة المشقة والتكلف لديهم في الحمل ، ثم العدول إلى بنائه للمفعول؛ لأنه لم

---

(١) الكشاف، ١/ ٢٩٤.

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب، ٢٩/ ٢٨٠؛ ونظم الدرر، ١٩/ ٤٠٨.

يكن مبادرة منهم؛ حتى يحملوه هم؛ لذا كان التشبيه بجامع عدم الفائدة مثل الحمار الذي يحمل الكتب فلا يستفيد منها(١).

ويلحظ كذلك في هذه الآية اختيار العطف بحرف(ثم) فقد حملوا هذه الأسفار ثم لم يحملوها، وفي هذا دلالة على طول الزمن، حيث إن (ثم) للتراخي الرتبي؛ فإن عدم وفائهم بما عهد إليهم أعجب من تحملهم إياه، لما كان تركهم لحملها وهي من عند الله وعلى لسان رجل منهم هو أعظم في أنفسهم وأجلهم إحسانا إليهم في غاية البعد ولا سيما مع طول الزمان المسهل لحفظها الميسر لتدبرها وتعرف مقدارها؛ لذا عبر بأداة البعد فقال :﴿ثم لم يحملوها﴾ بأن حفظوا ألفاظها ولم يعملوا بما فيها من الوصية باتباع عيسى عليه الصلاة والسلام(٢).

ثالثًا: المنافقون وما يتسمون به من خداع ومكر واضطراب:

وصف الله المنافقين بصفات المكر والخداع والاضطراب والتردد، وخذلان أصحابهم في المواقف التي يحتاجون فيها إلى النصرة، جاءت هذه المعاني من خلال عدة آيات تبين هذه المعاني بضرب من أساليب العدول النوعي، منها:

١-العدول النوعي في المفردة.

يقول الله ﷻ: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيسَ فِي قُلُوبِهِم وَٱللَّهُ أَعلَمُ بِمَا يَكتُمُونَ ﴾ [آل عمران:١٦٧]، فاختيار لفظ (الأفواه) دلالة على أن إيمانهم لا يتجاوز أفواههم، فهو معدوم في قلوبهم، خلاف صفة المؤمنين في مواطأة قلوبهم لأفواههم(٣)، واختيار الأفواه دون اللسان؛ لأن ذلك أبعد عن العقل والقول السديد؛ يقول البقاعي: ((ثم علل ذلك، أو استأنف بقوله معبرا بالأفواه التي منها ما هو

(١) ينظر: نظم الدرر،٢٠/٥٥؛ والتحرير والتنوير، ٢١٤/٢٨.

(٢) ينظر: نظم الدرر، ٢٠/٥٥؛ والتحرير والتنوير، ٢١٤/٢٨.

(٣) الكشاف، ٦٥٦/١.

أبعد من اللسان؛ لكونهم منافقين، فقولهم إلى أصوات الحيوان أقرب منه إلى كلام الإنسان ذي العقل واللسان؛ لأنهم ﴿يقولون بأفواههم﴾؛ ولما أفهم هذا أنه لا يجاوز ألسنتهم فلا حقيقة له ولا ثبات عندهم صرح به في قوله :﴿ما ليس في قلوبهم﴾، بل لا شك عندهم في وقوع القتال، علم الله هذا منهم، كما علموه من أنفسهم))[١]. ويجيب الرازي عن سؤال: ما معنى القول بالأفواه مع كون القول لا يكون إلا عن طريق الفم؟ ((الشيء المعلوم يكون علمه في القلب فيترجم به اللسان، أو تصوير للحال من خلال المبالغة في التشرف بالقول وتحريك الفم فيه. وهذا الإفك ليس إلا قولا يجري على ألسنتكم ويدور في أفواهكم من غير ترجمة عن علم به في القلب))[٢]. فالأفواه أبعد عن ترجمان القلب من اللسان؛ مما يفي بدقة وصف حال المنافقين وكذبهم، وبعدهم عن كلام العقل والرشد.

وهنا نلحظ أن التعبير القرآني حين يعبر عن إيمان المنافقين لا يذكر إيمانهم واعتقادهم، كما هو الحال مع المؤمنين في التعبير عنهم بلفظ الإيمان أو وصفهم بالمؤمنين، بل يعدل التركيب نحو التعبير بذكر قولهم وزعمهم أنهم آمنوا الإيمان، كما في قوله ﷻ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾[البقرة: ٨] فهنا يُظهر الاتساع في معنى القول؛ للدلالة على إيمانهم بصيغة الإضعاف والتردد وعدم القطع بقوله ﷻ: ﴿ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا﴾ ، وهذا هو المناسب للحالة التي عليها المنافقون من التصنع والتردد في الإيمان؛ حيث لا ينبع الإيمان من قلوبهم، فالتعبير عن إيمانهم عن طريق الحكاية بفعل القول، يرمز بمادته إلى أن قولهم ليس عن اعتقاد وفعل، وهذا ما نجده كذلك في الآية في هذا الموضع؛ حيث عبر عن إيمانهم بـ ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم﴾، فقولهم يُظهر

(١) نظم الدرر، ١١٩/٥.

(٢) الكشاف، ٢٧٥/٤.

التصنُّع والرياء والمداهنة ودفع التهمة، وبصيغة تومِئ إلى أن سببَ استمرار مدافعتهم وادعائهم مراءاة الناس، لا محرك وجداني[1] ؛ لذا نسب ادعاءاتهم إلى أبعد منطقة عن القلب وهي الأفواه، وهذا هو جمال التعبير في هذا العدول المؤتلف مع الحالة التي يعيشها المنافقون.

٢- العدول في التراكيب:

في قوله ﷻ:﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُم﴾[النساء:١٤٢] لماذا عبر عن فعلهم بـ(المضارع) وعن فعله ﷻ بالجملة الاسمية وصيغة اسم الفاعل ؟

لأن الفعل المضارع يناسب حدثهم الآني وقت فعلهم، وأما خداع الله[2] لهم فهو مكتوب في اللوح المحفوظ لعلمه ﷻ بمرادهم الذي يريدون فعله؛ لذا خداعهم لم يقع حتى يعبر عنه بالاسم الذي يثبت الصفة لهم، بل هم راموا الخداع؛ لأن ((مَن خَدع من لا يُخدع فإنما يخدع نفسه. وهذا صحيح؛ لأن الخداع إنما يكون مع من لا يعرف البواطن، وأما من عرف البواطن فمن دخل معه في الخداع فإنما يخدع

(١) نظر: بديع الزمان سعيد النورسي، إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، تحقيق: إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر للنشر- القاهرة، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٢م، ص: ٩٠، ١٠٧.

(٢) إثبات الخداع لله ﷻ أثبته أهل السنة لله ﷻ في مقابلة من يخادع، وهو هنا صفة مدح؛ لأنه يدل على قوة المخادع؛ إذ إنه أشد مكرًا من عدوه وأشد خداعًا، أما إذا لم يكن مقابل المخادعة فيسمى خيانة، وهذا عيب بكل حال، ولهذا لا يوصف الله ﷻبالخائن إطلاقًا، حتى مع الذين يخونون الله، فإنه لا يقابلهم بالخيانة يقول الله ﷻ:﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأنفال:٧١] ولم يقل: فخانهم، وجه ذلك: أن الخيانة خداع في موضع الائتمان. ينظر: ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم (سورة النساء)، دار ابن الجوزي- السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٣٠، ٣٦١/٢

نفسه. ودل هذا على أن المنافقين لم يعرفوا الله إذ لو عرفوه لعرفوا أنه لا يخدع))[١].

٣- العدول الكمي بناء المفردة:

يقول الله ﷻ: ﴿مُّذَبۡذَبِينَ بَينَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰٓ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا﴾ [النساء:١٤٣]، جاء اللفظ المعبر عن حال المنافقين (مُّذَبۡذَبِينَ) فيه التكرار للذال والباء و((معنى (مُذَبْذَبِينَ) ذبذبهم الشيطان والهوى بين الإيمان والكفر، فهم متردّدون بينهما متحيرون. وحقيقة المذبذب الذي يذب عن كلا الجانبين، أي يذاد ويدفع فلا يقرّ في جانب واحد))[٢]، فهو: المهتز القلق الذي لا يثبت ولا يتمهل؛ فهؤلاء المنافقون مترددون بين المؤمنين والمشركين، لا مخلصين الإيمان ولا مصرحين بالكفر[٣]؛ وبهذا يتبين جمال وصف القرآن لحال هؤلاء المنافقين، ولما هم عليه من الاضطراب والقلق في الطريق، وما لهذا المعنى من ظهور في ائتلاف اللفظ المعبر عن حالهم.

ومثلها قول الله ﷻ: ﴿وَٱرۡتَابَت قُلُوبُهُم فَهُم فِي رَيۡبِهِم يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة:٤٥]، فالتردد عبارة عن التحير والاضطراب، وهنا يظهر الائتلاف بين وصف حال الذين أخبر الله ﷻ عنهم من المنافقين، من التردد والريبة وعدم الثبات على حال، وتكرار الحرف وتضعيفه.

رابعًا: ضلال الكفار والمشركين وإفسادهم:

١- العدول في الحركة الإعرابية :

في قوله ﷻ: ﴿وَدُّواْ لَو تُدهِنُ فَيُدهِنُونَ﴾[القلم:٩] هنا دل النظم على حال المشركين، حيث لم ينصب مع وقوعه جواب التمني؛ لأن التقدير: ودوا لو تدهن

(١) الجامع لأحكام القرآن، ١/ ٢٩٨.
(٢) الكشاف، ١٦٧/٢.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، ٧/ ١٩٤.

فهم يدهنون: وعلل الزمخشري العدول عن النصب إلى الرفع بما يعود إلى مقاصدهم وطمعهم، يقول: ((فإن قلت: لم رفع (فَيُدْهِنُونَ) ولم ينصب بإضمار (أن) وهو جواب التمني؟ قلت: قد عدل به إلى طريق آخر: وهو أن جعل خبر مبتدأ محذوف، أي: فهم يدهنون، كقولهﷻ: ﴿فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلا يَخافُ﴾ على معنى: ودوا لو تدهن فهم يدهنون حينئذ. أو ودوا إدهانك فهم الآن يدهنون، لطمعهم في إدهانك))[1]. فجعل توجيه النصب هو مقصدهم والحالة التي هم عليها الآن وما هم عليه من طمعٍ في إدهان النبي ﷺ، وكذلك علل ابن عاشور ذلك بقوله: ((وسلك هذا الأسلوب؛ ليكون الاسم المقدر (هم) مقدمًا على الخبر الفعلي فيفيد الاختصاص، أي فالإدهان منهم لا منك، وذلك لطمعهم في إدهانك، أي فاترك الإدهان ولا تتخلق به أنت)) [2].

٢-العدول النوعي في اختيار حرف الجر:

يقول الله ﷻ: ﴿ فَٱسلُك فِيهَا مِن كُلٍّ زَوجَينِ ٱثنَينِ وَأَهلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيهِ ٱلقَولُ مِنهُم ﴾ [المؤمنون:٢٧]، جاء الإخبار عمن حق عليه العذاب من الكفار بتعدية الفعل بحرف (على) :﴿سَبَقَ عَلَيهِ ٱلقَولُ﴾ وهذا مع السبق الضار، بيد أن في موضع آخر جاء السبق النافع مع اللام،كما في قوله ﷻ:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَت لَهُم مِّنَّا ٱلحُسنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنهَا مُبعَدُونَ﴾[الأنبياء:١٠١]، وكذلك قوله ﷻ: ﴿وَلَقَد سَبَقَت كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلمُرسَلِينَ﴾ [الصافات:١٧١]، واجتمعت في قوله ﷻ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفسًا إِلَّا وُسعَهَا لَهَا مَا كَسَبَت وَعَلَيهَا مَا ٱكتَسَبَت ﴾ [البقرة:٢٨٦]، فـ ((جيء بعلى لكون السابق ضارًّا لهم، كما جيء باللام فيما هو نافع لهم من قوله عز وجل :﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين﴾ ، وقوله :﴿إن الذين سبقت

(١) الكشاف، ١٨١/٦.

(٢) التحرير والتنوير ،٦٩/٢.

لهم منا الحسنى﴾))[١]؛ ولأنك تقول في الحق المكتسب لك هذا حق لي، فتنتفع منه، في حين أن الذي عليك ويلحقك من المشقة والالتزام هذا حق عليّ. يقول ابن عاشور: ((وعدي(سبق) بحرف (على)؛ لتضمين (سبق) معنى: حكم، كما عدي باللام في قولهﷻ: ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين﴾ [الصافات:١٧١]؛ لتضمينه معنى الالتزام النافع))[٢].

٣- العدول النوعي في حرف العطف:

يقول اللهﷻ:﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُم عَلَيهَا لَشَوبًا مِّن حَمِيمٍ﴾ [الصافات:٦٧] أخبر اللهﷻ عن حال الكفار في النار وحالة شربهم وأكلهم فيها، فاختار لحال الشرب بعد الأكل حرف (ثم) الدال على التراخي ائتلافًا مع حالهم فيها، حيث لا يجابون إلى السقي إلا بعد زمن طويل؛ تنكيلًا بهم، وزيادة في عذابهم وإهانتهم، فيبين الزمخشري سر هذا الائتلاف في العدول نحو حرف العطف (ثم) ببيان وجهين لهذا الائتلاف: ((أحدهما: أنهم يملئون البطون من شجر الزقوم، وهو حارّ يحرق بطونهم ويعطشهم، فلا يسقون إلا بعد ملى تعذيبًا بذلك العطش، ثم يسقون ما هو أحرّ، وهو الشراب المشوب بالحميم. والثاني: أنه ذكر الطعام بتلك الكراهة والبشاعة، ثم ذكر الشراب بما هو أكره وأبشع، فجاء بـ(ثمّ)؛ للدلالة على تراخى حال الشراب عن حال الطعام ومباينة صفته لصفته في الزيادة عليه. ومعنى الثاني: أنهم يذهب بهم عن مقارّهم ومنازلهم في الجحيم، وهي الدركات التي أسكنوها إلى شجرة الزقوم، فيأكلون إلى أن يمتلئوا، ويسقون بعد ذلك، ثم يرجعون إلى دركاتهم، ومعنى التراخي في ذلك بين))[٣].

---

(١) تفسير أبي السعود، ٦٠/٤.

(٢) التحرير والتنوير، ٧٢/١٢.

(٣) الكشاف، ٢١٤/٥.

٤-العدول النوعي في المفردة.

لقد جاء القرآن بألفاظ متفردة، لم ترد في موضع آخر من القرآن، فعدل عن الألفاظ المألوفة إلى لفظ متفرد غريب، وهذه الغربة جاءت ائتلافًا مع السياقات المتنوعة، من ذلك ما جاء مؤتلفًا مع أحوال المخبر عنه في قوله ﷻ:﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴾ [النجم:٢٢] أي: قسمة جائرة، فاختيار كلمة (ضيزى) جاء متفردًا في القرآن. ومع كون بعض أهل العلم وجه مناسبة الكلمة إلى تناسب فواصل السورة – كما يقول ابن الأثير- ((جاءت اللفظة على الحرف المسجوع الذي جاءت السورة جميعها عليه، وغيرها لا يسُدُّ مسدها في مكانها))[1] ، إلا أن بعض البلاغيين نظر إلى ائتلاف غرابة اللفظ وعدوله عن استعمال كلمة (جائرة) مع غرابة القسمة التي افتراها المشركون في البنات لله، فهي تصور حالة المخبر عنه وما هو عليه من غربة الفرية وشناعتها، يقول الرافعي عن غرابة اللفظة مع حسن موقعها: ((إن حسنها في نظم الكلام من أغرب الحسن وأعجبه؛ ولو أدرتَ اللغة عليها ما صلح لهذا الموضع غيرها؛ فإن السورة التي هي منها وهي سورة النجم، مفصلة كلها على الياء؛ فجاءت الكلمة فاصلة من الفواصل، ثم هي في معرض الإنكار على العرب؛ إذ وردت في ذكر الأصنام وزعمهم في قسمة الأولاد، فإنهم جعلوا الملائكة والأصنام بنات لله مع أولادهم البنات فقال ﷻ:﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ [النجم:٢١ ،٢٢] فكانت غرابة اللفظ أشد الأشياء ملاءمة لغرابة هذه القسمة التي أنكرها، وكانت الجملة كلها كأنها تصور في هيئة النطق بها الإنكارَ في الأولى والتهكم في الأخرى؛ وكان هذا التصوير أبلغ ما في البلاغة، وخاصة في اللفظة الغريبة التي تمكنت في موضعها من

(١) ابن الأثير، المثل السائر، تحقيق: أحمد الحوفي، وبدوي طبانة، دار الرفاعي –الرياض، ط الثانية، ١٤٠٣هـ، ٢٦٥/١.

الفصل، ووصفت حالة المتهكم في إنكاره من إمالة اليد والرأس بهذين المدَّين فيها إلى الأسفل والأعلى، وجمعت إلى كل ذلك غرابة الإنكار بغرابتها اللفظية))[١].

٥–العدول النوعي في الضمير وإحالته:

يقول الله ﷻ: ﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ [الجاثية:٩] الضمير في الأصل يعود إلى أقرب مذكور، بيد أن الله أخبر عن هذا الأفاك الأثيم بأنه اتخذ آيات الله هزوًا، فجاءت إحالة الضمير في (ٱتَّخَذَهَا) ليست لـ(شَيء) مع كونه أقرب مذكور؛ إذ إن (شيئًا) مذكّر، والضمير أحيل على مؤنث فما السر في ذلك؟

يقول أبو حيان: ((﴿اتخذها هزوا﴾، ولم يقل: اتخذه؛ إشعارًا بأنه إذا أحس بشيء من الكلام أنه من جملة الآيات التي أنزلها الله على محمد ﷺ ، خاض في الاستهزاء بجميع الآيات، ولم يقتصر على الاستهزاء بما بلغه))[٢]. وهذا إشعار بحالته التي هو عليها من التكذيب في جملة الآيات، وليس ما سمعه فحسب، وفيه دلالة على أنه إذا سمع كلامًا، وعلم أنه من الآيات بادر إلى الاستهزاء بالآيات كلها، ولم يقتصر على ما سمعه[٣].

٦– العدول النوعي في الفعل:

يقول الله ﷻ: ﴿وَلَقَد أَخَذنَٰهُم بِٱلعَذَابِ فَمَا ٱستَكَانُواْ لِرَبِّهِم وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون:٧٦]، نلحظ في هذه الآية العدول من الماضي إلى المضارع، حيث

---

(١) الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي– بيروت، ط التاسعة، ١٣٩٣هـ، ص: ٢٣٠.

(٢) البحر المحيط، ٨/ ٤٤.

(٣) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل (تفسير البيضاوي)، دار إحياء التراث العربي– بيروت، ط الأولى، ١٠٦/٥.

عبر بالفعل الأول (ٱستَكَانُواْ) بالماضي، ثم عطف عليه الفعل (يَتَضَرَّعُونَ) بصيغة المضارع. فما وجه هذا العدول؟

يقول الزمخشري: ((فإن قلت: هلا قيل: وما تضرعوا. أو: فما يستكينون؟ قلت: لأنّ المعنى: محناهم فما وجدت منهم عقيب المحنة استكانة، وما من عادة هؤلاء أن يستكينوا ويتضرعوا؛ حتى يفتح عليهم باب العذاب الشديد))[1] ، ويقول ابن جزي: ((إنما استكانوا عند العذاب الذي أصابهم، وما يتضرعون؛ حتى يفتح عليهم باب عذاب شديد فنفى الاستكانة فيما مضى، ونفى التضرع، في الحال والاستقبال)) وهذا مما يدل على تجدد انتفاء تضرعهم[2]، فكان العدول مناسبًا لحالهم.

٧-العدول في التراكيب:

يقول الله ﷻ: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعنَا وَهُم لَا يَسمَعُونَ﴾[الأنفال:٢١]، ينهى اللهﷻ المؤمنين عن التشبه بحال الذين ادعوا السماع وهم لا يسمعون، وهنا نلحظ أن النفي لزعم سمعهم لم يأت على نسق زعمهم في صيغة الماضي، بل عدل إلى صيغة المضارع، وجعل النفي في جملة اسمية، فهل هذا العدول مؤتلفٌ مع حال من أخبر عنهم؟

يجيب عن هذا العدول المؤتلف مع حالهم ابن عاشور، فيقول: ((وتقديم المسند إليه على المسند الفعلي؛ للاهتمام به، ليتقرر مفهومه في ذهن السامع، فيرسخ اتصافه بمفهوم المسند، وهو انتفاء السمع عنهم، على أن المقصود الأهم من قوله ﷻ: ﴿ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون﴾ هو التعريض بأهل هذه الصلة من الكافرين أو المنافقين لا خشية وقوع المؤمنين في مثل ذلك، وصيغ

(١) الكشاف، ٢٤٤/٤.

(٢) التحرير والتنوير، ١٠١/١٨.

فعل﴿لا يسمعون﴾ بصيغة المضارع؛ لإفادة أنهم مستمرون على عدم السمع فلذلك لم يقل: وهم لم يسمعوا))[١].

فكانت الجملة الاسمية ترسيخًا لحال المخبر عنه، وكذلك العدول نحو المضارع دون دخول (لم) التي تقلب الزمن من المضارع إلى الماضي؛ لبيان الحالة التي عليها الكافرون من الاستمرار على عدم السماع والإعراض، يقول أبو حيان الأندلسي: ((جاءت الجملة النافية على غير لفظ المثبتة، إذ لم تأت (وهم ما سمعوا)؛ لأن لفظ المضي لا يدل على استمرار الحال ولا ديمومته بخلاف نفي المضارع، فكما يدل إثباته على الديمومة في قولهم: هو يعطي ويمنع، كذلك يجيء نفيه، وجاء حرف النفي لا؛ لأنها أوسع في نفس المضارع من ما، وأدل على انتفاء السماع في المستقبل، أي: هم ممن لا يقبل أن يسمع))[٢].

ومما جاء في سياق العدول من الجملة الفعلية إلى الاسمية قوله ﷻ:﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحدَهُ ٱشمَأَزَّت قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤمِنُونَ بِٱلأٓخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُم يَستَبشِرُونَ﴾[الزُّمَر:٤٥]؛ حيث أخبر الله عن حال المشركين في موقفهم من سماع ذكر الله ﷻ ، وذكر آلهتهم، فأظهر الله ﷻ في هذا الإخبار الائتلاف بين حالتهم من الاشمئزاز عند ذكر الله ﷻ ؛ إذ إن هذه الحالة ليست الحالة التي هم عليها في حياتهم؛ لذا جاء التعبير بالفعل؛ لأن ذكر الله ﷻ في المجالس التي يرتادونها على اشمئزازهم ليست هي الأصل، وأما ذكر آلهتهم فجاء الإخبار عنها بالجملة الاسمية؛ ائتلافًا لحالهم المستقرة على الفرح بهذه الآلهة، وأن هذا هو الأصل في

(١) التحرير والتنوير، ١٠/٣٠٤،٣٠٥.

(٢) البحر المحيط، ٤/٤٧٤.

حياتهم اليومية. وكذلك جيء بالمضارع في (يستبشرون) دون أن يقال: مستبشرون، لإفادة تجدد استبشارهم[١].

وعدل عن ذكر آلهتهم أو شركائهم إلى لفظ ﴿الذين من دونه﴾؛ ((للإيماء إلى أن علة استبشارهم بذلك الذكر هو أنه ذكر من هم دون الله، أي ذكر مناسب لهذه الصلة، أي هو خال عن اسم الله، فالمعنى: وإذا ذكر شركاؤهم دون ذكر الله إذا هم يستبشرون))[٢] .

٨- العدول الكمي في الإطناب:

يقول الله ﷻ:﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلمُهُم فِي ٱلۡأٓخِرَةِ بَل هُم فِي شَكّٖ مِّنۡهَا بَل هُم مِّنۡهَا عَمُونَ ﴾ [النمل:٦٦]، جاءت الآية مخبرة عن حال هؤلاء الكفار بأسلوب تكرار حرف الإضراب (بل) فما معنى هذه الإضرابات الثلاث؟ يناقشها الزمخشري بقوله: ((فإن قلت: هذه الإضرابات الثلاث ما معناها ؟ قلت: ما هي إلا تنزيل لأحوالهم، وصَفَهم أولًا بأنهم لا يشعرون وقت البعث، ثم بأنهم لا يعلمون أن القيامة كائنة، ثم بأنهم يخبطون في شك ومرية فلا يزيلونه، والإزالة مستطاعة، وقد جعل الآخرة مبدأ عماهم ومنشأه، فلذلك عداه بمن دون عن؛ لأن العاقبة والجزاء هو الذي جعلهم كالبهائم لا يتدبرون ولا يبصرون)) [٣].

ومما جاء في سياق العدول الكمي في الإطناب قوله ﷻ:﴿وَكَانَ فِي ٱلمَدِينَةِ تِسعَةُ رَهطٖ يُفسِدُونَ فِي ٱلأَرضِ وَلَا يُصلِحُونَ ﴾[النمل:٤٨]، فأخبر عن قوم صالح عليه السلام بكونهم مفسدين، ومعلوم أن الفساد ضد الصلاح، فلماذا جاءت (وَلَا يُصلِحُونَ)؟

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير، ٣٠/٢٤.

(٢) المرجع السابق، ٢٩/٢٤.

(٣) الكشاف، ٤٦٩/٤.

في ذلك الإطناب مبالغة في وصف حالهم في الفساد؛ حيث إن المفسد قد يسمى مفسدًا؛ لغلبة الفساد عليه مع وجود مظاهر قليلة للصلاح عنده، أما هؤلاء فإفسادهم شر محض، لا يخلط بشيء من الصلاح [١]، وبذا حقق خلوصهم للفساد بما أفهمته صيغة المضارع :﴿ولا يصلحون﴾[٢] .

٩- العدول الكمي بالحذف:

يقول الله ﷻ:﴿وَلَو نَشَآءُ لَطَمَسنَا عَلَىٰٓ أَعيُنِهِم فَٱستَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبصِرُونَ﴾ [يس:٦٦] ، أخبر الله عن حال الكفار حين استباقهم إلى الصراط بحذف حرف الجر (إلى) فلِم حذف (إلى)، حيث في غير القرآن (فاستبقوا إلى الصراط)[٣] .

لقد جاء هذا العدول تصويرًا لحالهم، وتضمينًا للفعل معنى(ابتدروا)، فناسب تصوير سرعتهم في ابتدار الصراط أن يحذف إلى، حيث أسرعوا لما دهمهم رجاء أن يصلوا إلى بيوتهم قبل أن يهلكوا فلم يبصروا الطريق، ((والاستباق: افتعال من السبق والافتعال دال على التكلف والاجتهاد في الفعل أي فبادروا، والصراط: الطريق الذي يمشى فيه، وتعدية فعل الاستباق إليه على حذف (إلى) بطريقة الحذف والإيصال))[٤].

١٠- العدول الكمي بالتضعيف:

يقول الله ﷻ: ﴿وَمَن يُرِد أَن يُضِلَّهُۥ يَجعَل صَدرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام:١٢٥]، جاء الإخبار عن حال أهل الضلال بتشبيه حالهم بمن يصعّد في السماء، وهنا تلحظ التضعيف في كلمة (يصّعّد) لبيان الحالة التي هو

(١) المرجع السابق، ٤/٤٦٠.

(٢) نظم الدرر، ١٤/ ١٧٦، ١٧٧.

(٣) الكشاف، ٥/١٨٧.

(٤) التحرير والتنوير، ٢٣/٥٢.

عليها من الكلفة والضيق في البعد والنفور من الإسلام، وهنا يظهر الائتلاف بين ثقل التكليف عليهم الذي يشبه بثقل من يصعد في السماء ويتكلف ذلك الصعود، وما هو عليه اللفظ من الثقل في اجتماع التضعيفين للصاد والعين، وكأنك تعيش صورة الثقل من خلال النظر في الحرف المشدد المضعف. يقول الرازي: ((المعنى: أنه في نفوره عن الإسلام وثقله عليه بمنزلة من تكلف الصعود إلى السماء، فكما أن ذلك التكليف ثقيل على القلب، فكذلك الإيمان ثقيل على قلب الكافر)) ويقول ابن عاشور:((مَثَلُ حال المشرك حين يدعى إلى الإسلام أو حين يخلو بنفسه، فيتأمل في دعوة الإسلام، بحال الصاعد، فإن الصاعد يضيق تنفسه في الصعود، وهذا تمثيل هيئة معقولة بهيئة متخيلة؛ لأن الصعود في السماء غير واقع))[1].

ومما جاء في هذا على هذا النسق في العدول الكمي مع الكفار، في تضعيف الكلمة قوله ﷻ: ﴿يَومَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾[الطور:١٣]، فالتشديد فيه من رسم صورة الائتلاف بين حال الكفار حين يدفعون إلى جهنم واللفظ، إذ ((يساقون إلى نار جهنم سوقًا بدفعٍ، وفيه تمثيل حالهم بأنهم خائفون متقهقرون، فتدفعهم الملائكة الموكلون بإزجائهم إلى النار))[2].

وكذلك مما جاء في العدول الكمي في سباق الإخبار عن الكفار قوله ﷻ: ﴿فَكُبكِبُواْ فِيهَا هُم وَٱلۡغَاوُۥنَ﴾[الشعراء:٩٤]، فالكبكبة: تكرير الكب، وجعل تكرير اللفظ دليلًا على تكرير للمعنى، فحالهم في جهنم ينكب مرة بعد مرة حتى يستقر في قعرها.

---

(١) السابق، ٦٠/٨.

(٢) التحرير والتنوير، ٤٣/٢٧.

وهكذا، رأينا العدول في هذه الآيات جاء مؤتلفًا مع تلك الأحوال القارة من إيمان وكفر ونفاق؛ ليكشف لنا هذا العدول مدى جماليات النص القرآني الذي يتعالى على القاعدة النحوية، وضروراتها إلى جماليات وأسرار تظهر من خلال الغور في أسباب هذا الائتلاف وتناسبه مع الأحوال؛ إذ ليست المعاني المباشرة والدلالات المطابقة هي الوحيدة ببيان المعاني وأحوالها؛ وكذلك استبان لنا مدى الدقة المتناهية في الخطاب القرآني في وصف أحوال من أخبر عنها، ومع هذه التناسب مع تلك الأحوال المختلفة والمتباينة، إلا أن الخطاب القرآني جاء على نسق واحد في العلو البياني؛ إذ لا تفاوت فيه ولا نبوّ، فكل أسلوب أو عدول معين يقتضيه المقام المناسب له.

المطلب الثاني: أحوال المخبر عنه الطارئة (العوامل النفسية)

لئن كان البحث قد جلّى في المطلب السابق بعض الصفات القارّة في طبيعة النفس البشرية، وما يتمثلها الإنسان منها في حياته، وما أخبر به القرآن وعبّر بها تعبيرًا دقيقًا عن أحوالهم وصفاتهم من خلال ائتلافها مع العدول في الخطاب، فإن البحث في هذا المطلب أكثرُ دِقَّةً، وأظهرُ في بيان مدى الائتلاف بين الأحوال النفسية العدول في الخطاب؛ إذ إنَّ الإخبار عن تلك الأحوال هو تسجيلٌ للحظات عابرة، ومواقف سريعة متغيِّرة، فهي ليست ديدنهم الدائم، وصفتهم المستقرة التي اشتهروا بها، كما هو الحال في المطلب السابق، فهو إتمامٌ وتَرَقٍّ في الوصول إلى مزايا الانسجام والتناسب بين اللحظات النفسية العابرة والمواقف النفسية الطارئة، والعدول المعجز الذي ينقل لنا خصائص النفس البشرية وما يمر بها من لحظات وتغيرات، وكيفية حضورها حضورًا متسقًا في العدول القرآني، كيف لا والذي يخبر عن تلك مكامن النفس هو الذي أحاط بكل شيء علمًا ﷻ ، ومن تلك الصفات النفسية: الغضب، والحزن، واليأس، والدهشة والذهول، والعجز، والفقر، والضعف،

والقلة، والإنكار والتبرئة، والكيد، وسيتتبعها الباحث من خلال آيات العدول في الخطاب القرآني.

أولًا: الغضب.

العدول النوعي في التراكيب:

من الأحوال النفسية التي ذكرها الله ﷻ في إخباره عن أحوال من أخبر عنه هو الغضب، يقول الله ﷻ: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلغَضَبُ أَخَذَ ٱلأَلوَاحَ﴾ [الأعراف:١٥٤]، العدول هنا عن (سكت موسى عن الغضب) ليس من باب القلب، بل التحقيق فيه أن هذا العدول أشرف وأفصح؛ لما فيه من ((معنى بليغ، وهو أن الغضب كان متمكنًا من موسى عليه السلام، حتى كان كأنه يصرفه في أوامره، وكل ما وقع منه حينئذ، فعن الغضب صادر، حتى كأنه هو الذي أمره به))[1]. فهنا تصوير وتجسيد للغضب، فعدل عن جعل موسى عليه السلام هو الفاعل للكف عن الغضب إلى أن يجعل الغضب هو الذي يسكن؛ على سبيل المجاز العقلي.

وأيضًا ((شبه الغضب بمتكلم كان يحث موسى عليه السلام ويغريه على ما يوجبه ويقتضيه، فلما شفى غيظه، سكن وقطع كلامه، فخلفه ضده وهو الرضى ﴿عَن مُّوسَى ٱلغَضَبُ﴾ وهو غليان القلب بما يتأذى به النفس))[2].

فـ((السكوت مستعار لذهاب الغضب عنه – شبه ثوران الغضب في نفس موسى عليه السلام المنشئ خواطر العقوبة لأخيه ولقومه، وإلقاء الألواح حتى انكسرت، بكلام شخص يغريه بذلك، وحسن هذا التشبيه أن الغضبان يجيش في نفسه حديث للنفس يدفعه إلى أفعال يطفئ بها ثوران غضبه، فإذا سكن غضبه وهدأت نفسه

---

(١) الكشاف، ٥١٥/٢، وهذا النص من تعليق أحمد بن المنير على الكشاف في كتابه (الانتصاف) الملحق بالكشاف في حاشيته (في الصفحة نفسها).

(٢) نظم الدرر، ٩٢/٨

كان ذلك بمنزلة سكوت المغري، فلذلك أطلق عليه السكوت، وهذا يستلزم تشبيه الغضب بالناطق المغري على طريقة المكنية، فاجتمع استعارتان، أو هو استعارة تمثيلية مكنية؛ لأنه لم تذكر الهيئة المشبه بها ورمز إليها بذكر شيء من روادفها وهو السكوت، وفي هذا ما يؤيد أن إلقاء الألواح كان أثرًا للغضب))[١] .

وفي هذا العدول من البلاغة والمبالغة وتصوير للحالة التي يمر به موسى عليه السلام من إغراء الغضب له بتنزيل الغضب الحامل له على ما صدر عنه من الفعل والقول، منزلة الآمر بذلك، المغري عليه بالتحكم والتشديد، والتعبير عن سكونه بالسكوت ما لا يخفى[٢].

ثانيًا: الحزن.

١–العدول النوعي في المفردة:

ومما جاء في العدول القرآني ما أخبر به ﷻ عن محمد ﷺ وحزنه على تعنت الكافرين وما يحصل من ذلك ضيق في صدره، يقول الله ﷻ:﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُ بَعضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيكَ وَضَآئِقُ بِهِۦ صَدرُكَ أَن يَقُولُواْ لَولَآ أُنزِلَ عَلَيهِ كَنزٌ أَو جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ [هود:١٢] ، والمعنى: ((لا ينبغي هذا لمثلك، أن قولهم يؤثر فيك، ويصدك عما أنت عليه، فتترك بعض ما يوحى إليك، ويضيق صدرك لتعنتهم بقولهم : ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ ، فإن هذا القول ناشئ من تعنت، وظلم، وعناد، وضلال، وجهل بمواقع الحجج والأدلة، فامض على أمرك، ولا تصدك هذه الأقوال الركيكة التي لا تصدر إلا من سفيه ولا يضق لذلك صدرك)) [٣].

---

(١) التحرير والتنوير، ١٢٢/٩.

(٢) تفسير أبي السعود، ٢/ ٤٢٠.

(٣) عبد الرحمن السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن اللويحق، مكتبة المعارف– الرياص، ص: ٣٧٨.

فنلحظ هنا أن الخطاب القرآني عدل عن (ضيق) إلى (ضائق)؛ لأن ضيق النبي ﷺ عارض غير ثابت؛ حيث كان ﷺ أفسح الناس صدرًا [1]، وأما (ضيِّق) فتستعمل في الصفات الثابتة المستقرة، وهذا العدول اللفظي هو ما يأتلف مع الحالة التي يمر بها النبي ﷺ، يقول ابن عطية: ((وعبر بـ "ضائق" دون "ضيّق" للمناسبة في اللفظ مع "تارك"، وإن كان "ضيق" أكثر استعمالًا؛ لأنه وصف لازم، و"ضائق" وصف عارض، فهو الذي يصلح هنا))[2].

٢-العدول النوعي في التراكيب:

ومما أخبر الله ﷻ به عن حال المؤمنين، وصور مشهد الحزن الذي مرّ به بعض فقراء الصحابة حين طلبوا من النبي ﷺ أن يحملهم فلم يجد ما يحملهم عليه، يقول الله ﷻ: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوكَ لِتَحمِلَهُم قُلتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحمِلُكُم عَلَيهِ تَوَلَّواْ وَّأَعيُنُهُم تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة:٩٢] لقد صور الله ﷻ حزنهم ومشهد بكائهم بأسلوب العدول، حيث أسند فيضان الدمع إلى العين على سبيل المجاز، وهذا أبلغ من أن تكون العين يفيض دمعها؛ فكأن العين كلها دمع فائض، وهذا أبلغ في تصوير حال الصدق في الحزن لدى هؤلاء حيث الدموع الصادقة، يقول البقاعي: ((﴿وأعينهم تفيض﴾ أي: تمتلئ فتسيل، وإسناد الفيض إليها أبلغ من حيث إنها جعلت كلها دمعًا، ثم بين الفائض بقوله :﴿من الدمع﴾ أي: دمعا. والأصل: يفيض دمعها، ثم علل فيضها بقوله :﴿حزنا﴾ ثم علل حزنهم بقوله :﴿ألا يجدوا﴾ أي: لعدم وجدانهم ﴿ما ينفقون﴾ ، فحزنهم في

(١) ينظر: الكشاف، ٣/ ١٨٦.

(٢) ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز: تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية- بيروت، ط الأولى، ١٤٢٢هـ، ٣/١٥٤.

الحقيقة على فوات مرافقتك والكون في حزبك، وهذه قصة البكائين صرح بها، وإن كانوا داخلين في﴿الذين لايجدون﴾؛ إظهارًا لشرفهم وتقريرًا))[١].

ثالثًا: اليأس.

العدول الكمي في التراكيب:

عبر الله ﷻ عن حال المستبشرين بالخير والغيث بعد انقطاعه، فقال ﷻ:﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيهِم مِّن قَبلِهِۦ لَمُبلِسِينَ﴾ [الروم:٤٩]، فكرر (ينزل) للتأكيد، وفائدته : ((الدلالة على أن عهدهم بالمطر قد تطاول وبَعُد، فاستحكم بأسهم، وتمادى إبلاسهم، فكان الاستبشار على قدر اغتمامهم بذلك))[٢]، فهنا العدول نحو تكرار (من قبله) لتصوير الحالة التي كانوا عليه من اليأس والقنوط والاكتئاب؛ لاحتباس المطر، وأن هذا اليأس قبل المطر، وكذلك قبل إنشاء السحاب، فهذا العدول بالتكرار جاء ائتلافًا مع حالة اليأس التي امتدت من قبل إنزال المطر وكذلك قبل إنشاء السحاب[٣].

يقول الرازي: ((الأولى أن يقال من قبل أن ينزل عليهم من قبله، أي من قبل إرسال الرياح، وذلك لأن بعد الإرسال يعرف الخبير أن الريح فيها مطر أو ليس، فقبل المطر إذا هبت الريح لا يكون مبلسًا، فلما قال من قبل أن ينزل عليهم، لم يقل: إنهم كانوا مبلسين؛ لأن من قبله قد يكون راجيًا غالبًا على ظنه المطر برؤية

---

(١) نظم الدرر، ٥٧٤/٨.

(٢) الكشاف، ٥٨٦/٤.

(٣) ينظر ما ذكره القرطبي في اختلاف المفسرين في توجيه القبلية، حيث ذكر منها: ((قيل: المعنى من قبل تنزيل الغيث عليهم من قبل الزرع، ودل على الزرع المطر إذ بسببه يكون. ودل عليه أيضا "فرأوه مصفرا" على ما يأتي. وقيل: المعنى من قبل السحاب من قبل رؤيته، واختار هذا القول النحاس أي من قبل رؤية السحاب "لمبلسين" أي لياسين)) .

السحب وهبوب الرياح، فقال: من قبله، أي: من قبل ما ذكرنا من إرسال الريح وبسط السحاب))[1].

رابعًا: الدهشة والذهول.

١-العدول النوعي في المفردة:

في خطاب القرآن عن أهوال يوم القيامة، وتصوير مشهد الفزع عند زلزلة الساعة، والحالة التي يمر بها الناس من الذهول والاندهاش، صور لنا الله ﷻ هذا المشهد بقوله ﷻ: ﴿يَومَ تَرَونَهَا تَذهَلُ كُلُّ مُرضِعَةٍ عَمَّآ أَرضَعَت﴾[الحج:٢]، فلم عدل عن لفظ (مرضع) إلى (مرضعة) مع كون الصفة خاصة بالنساء، فهي لا تحتاج إلى تأنيث؟

لأن المقام هنا في الإخبار عن هذه الحالة ليس بيان النسب بمعنى ذات رضاع، بل أراد الفعل وحدث الإرضاع وقت زلزلة الساعة[2].

فالحال التي تراد في الآية هي حال الإرضاع ملقمة ثديها الصبي أثناء الارضاع. أما المرضع فهي: التي شأنها أن ترضع وإن لم تباشر الإرضاع في حال وصفها له[3].

وهذا تصوير للذهول لهذا المرأة مع حبها الشديد لولدها وحرصها على إرضاعه إلا أنها تذهل عنه؛ لشدة اندهاشها من المشهد، والإشارة هنا إلى الذهول دون النسيان؛ لأنه أدل على تصوير الموقف؛ إذ هو عبارة عن شدة التشاغل، وذهول غيرها من الرجال والنساء من باب أولى، ولو عبر بـ(مرضع) لما حصل هذا

---

(١) مفاتيح الغيب، ٢٥/ ١٣٤.

(٢) ينظر: البحر المحيط ٥٢٣/٦.

(٣) الكشاف، ١٧٤/٤.

المعنى من وصف حال الالتباس بالإرضاع الذي هو من أعلى مراتب اهتمام الأم بولدها، ومع ذلك ذهلت عنه.

ويقول ابن عاشور: ((وزيادة كلمة (كل) للدلالة على أن هذا الذهول يعتري كل مرضع، وليس هو لبعض المراضع باحتمال ضعف في ذاكرتها. ثم تقتضي هذه الكناية كناية عن تعميم هذا الهول لكل الناس؛ لأن خصوصية هذا المعنى بهذا المقام أنه أظهر في تصوير حالة الفزع والهلع بحيث يذهل فيه من هو في حال شدة التيقظ لوفرة دواعي اليقظة. وذلك أن المرأة لشدة شفقتها كثيرة الاستحضار لما تشفق عليه، وأن المرضع أشد النساء شفقة على رضيعها، وأنها في حال ملابسة الإرضاع أبعد شيء عن الذهول فإذا ذهلت عن رضيعها في هذه الأحوال دل ذلك على أن الهول العارض لها هول خارق للعادة. وهذا من بديع الكناية عن شدة ذلك الهول؛ لأن استلزام ذهول المرضع عن رضيعها لشدة الهول يستلزم شدة الهول لغيرها بطريق الأولى، فهو لزوم بدرجة ثانية. وهذا النوع من الكناية يسمى الإيماء))[1].

٢- العدول النوعي في المفردة:

حين أخبر الله ﷻ عن موسى عليه السلام وخبر التقاط آل فرعون له، وما قالته زوجة فرعون من التماس إبقاء موسى عليه السلام دون قتله، قابل ذلك بالإخبار عن صورة المشهد الآخر لأم موسى عليه السلام وما هي عليه من حال الفرق والحزن، وكذلك الذهول في التفكير في مصير موسى عليه السلام، فجاء الخطاب القرآني راسمًا هذا المشهد في انتخاب ألفاظ تبين الائتلاف بين الحالة التي تمر بها أم موسى واللفظ المنتخب للدلالة عليها، يقول الله ﷻ: ﴿وَأَصبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ [القصص:١٠]، لقد عدل في التعبير عن اللفظ الأشهر وهو (القلب) إلى

(١) التحرير والتنوير، ١٨٩/١٧، ١٩٠.

انتخاب لفظ (الفؤاد) لما فيه من ائتلاف مع ما تمر به أم موسى من مشاعر وحرقة في داخلها، ولما أصابها من الفقد، فالعدول نحو القلب ائتلاف مع الحالة التي أخبر الله ﷻ عنها عن أم موسى حيث ازداد قلبها حرقة وشوقًا وخوفًا وحزنًا على موسى عليه السلام.

ثم جاء التعبير عن القلب بأنه (فارغ) ائتلافًا مع الحالة الشعورية التي هي عليه من ذهاب كل إدراك أو حس لما حولها سوى التفكير بموسى عليه السلام، ولبيان شدة حالها وطيران عقلها؛ لما دهمها من فرط الجزع والدهشة.

ولكون هذا اللفظ متفردًا في وصف الفؤاد والحالة التي تمر بها أم موسى عليه السلام فقد أورد المفسرون وجوهًا متعددة في توجيه معنى الفراغ هنا، منها: أحدها: فارغ من كل هم إلا من هم موسى عليه السلام. وثانيها: فراغ الفؤاد هو الخوف والإشفاق. وثالثها: أنه صفرٌ من العقل، والمعنى: أنها حين سمعت بوقوعه في يد فرعون طار عقلها من فرط الجزع والخوف. ورابعها: فارغٌ من الوحي الذي أوحينا إليها أن ألقيه في اليم، ولا تخافي، ولا تحزني[1]، وهكذا كان النظم البديع في هذا العدول والاختيار الأبلغ للتعبير عن القلب والحالة التي تمر بها أم موسى عليه السلام.

خامسًا: العجز وعدم القدرة.

العدول النوعي في المفردة:

جاء الخطاب القرآني دقيقًا في وصف الحالة التي يمر بها المخبر عنه، فلم يكن المعنى هو المسؤول عن تأدية المراد فحسب، بل كان الاختيار للكلمات واصطفاء حروفها، والعدول عن تعبير إلى آخر وجه من أوجه البيان للمعنى،

(١) ينظر في هذه الوجوه: الكشاف ٤/٤٨٥، ومفاتيح الغيب ٢٤/ ٢٢٩، والتحرير والتنوير ٢٠١/٨٠،٨١.

فمن ذلك العدول بين الزيادة أو النقص في حروف الكلمة، وهذه الزيادة تحل معها زيادة في المعنى؛ إذ الزيادة في المبنى تدل على الزيادة في المعنى، فمن ذلك قوله ﷻ:﴿فَمَا ٱسطَٰعُوٓاْ أَن يَظهَرُوهُ وَمَا ٱستَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقبًا ﴾ [الكهف:٩٧]، فحين ننظر إلى الاختيار للتعبير بين الحالين، نجد أن الاختيار الأول للتعبير عن حال الظهور هو (اسطاعوا) في حين أن التعبير حن حال النقي هو (استطاعوا)، وقد جاء هذا التعبير على غير الترتيب السابق؛ إذ إن التعبير في قصة الخضر تقدمت الزيادة (تستطع) على عدم الزيادة (تسطع)، فما العلة في هذا العدول عن الترتيب، وكذلك العدول بين الزيادة والنقص؟ يجيب عنه ابن عاشور في قوله: ((واسطاعوا تخفيف استطاعوا. والجمع بينهما تفنن في فصاحة الكلام كراهية إعادة الكلمة، وابتدِئ بالأخف منهما؛ لأنه وليه الهمز وهو حرف ثقيل لكونه من الحلق، بخلاف الثاني إذ وليه اللام وهو خفيف، ومقتضى الظاهر أن يبتدأ بفعل استطاعوا ويثني بفعل اسطاعوا؛ لأنه يثقل بالتكرير، كما وقع في قوله آنفا ﴿سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا﴾ [الكهف: ٧٨]، ومن خصائص مخالفة مقتضى الظاهر هنا إيثار فعل ذي زيادة في المبنى بموقع فيه زيادة المعنى؛ لأن استطاعة نقب السد أقوى من استطاعة تسلقه، فهذا من مواضع دلالة زيادة المبنى على زيادة في المعنى))[١] ، وهكذا تبين أن الحالة التي عليها من أخبر عنهم ﷻ وهي الظهور تتطلب الخفة في التسلق، فناسبها العدول نحو اللفظ الأقل في الحروف (اسطاعوا)، وأما الحالة الأخرى التي أخبر عنها ﷻ وهي النقب، فهي تتطلب القوة والشدة، فناسبها العدول نحو زيادة الأحرف(استطاعوا).

(١) التحرير والتنوير، ٣٨/١٦.

سادسًا: الفقر.

العدول النوعي في التراكيب:

يقول الله ﷻ:﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ [الأنعام: ١٥١] ويقول ﷻ:﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء:٣١]، نلحظ بين هاتين الآيتين عدولًا في التقديم والتأخير في الضمائر، وهذا العدول في الترتيب يأتلف مع سياق الحال التي يخبر الله ﷻ عنها. ففي سياق الحديث –في سورة الأنعام– عن النهي عن قتل الأولاد بسبب وجود الفقر، قدّم الضمير الذي يعود عليهم في الرزق (نرزقكم وإياهم) أما في سياق سورة الإسراء حين النهي عن قتل الأولاد بسبب الخوف من الفقر ولمـّا يقع، فالتقديم هنا لرزق الأولاد (نحن نرزقهم وإياكم)؛ لأنهم ليسوا فقراء حال القتل[١].

ثامنًا: الضعف والقلة.

من دقة ألفاظ المعاني في القرآن أن الله ﷻ يؤكد الوصف لحال المخبر عنه باللفظ الدال على المعنى دلالة صريحة ودلالة بنائية، والعدول نحو اختيار لفظ من الأبنية الصرفية أو الجموع هي طريقة من طرق تعبير القرآن عن تلك الأحوال، من ذلك قوله ﷻ: ﴿وَلَقَد نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدرٍ وَأَنتُم أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران:١٢٣]، فإذا تأملنا كلمة (أذلة) وجدنا أن القرآن عبر عن حالة الضعف التي كان عليها المسلمون قبل أن يمن عليهم ﷻ بالنصر بمفردة تدل على هذا الضعف من جانبين: من جانب المعنى: وهو مفهوم الذلة والضعف، والجانب الآخر: العدول نحو جمع القلة: (أذلة) الذي على وزن: (أفعلة)، ائتلافًا بين اللفظ المنتخب والحالة التي عليها المسلمون قبل النصر من الضعف والذلة، وقلة السلاح والعتاد ؛ حيث كانوا يعتقبون على البعير الواحد، ليُذكِّر عباده بمقام الشكر

(١) ينظر: التحرير والتنوير، ٨٧/١٥، ٨٨.

من خلال المقابلة بين النصر والتمكين وبين كونهم قلة أذلة. بجامع قدرته سبحانه ومعيته لعباده المؤمنين، يقول أبو حيان: ((فجاء على جمع القلة؛ ليدل أنهم كانوا قليلين. والذلة التي ظهرت لغيرهم عليهم هي ما كانوا عليه من الضعف وقلة السلاح والمال والمركوب))[١].

تاسعًا: الكيد.

العدول النوعي في التراكيب:

يقول الله ﷻ: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًا﴾ [يوسف:٥] حين نتأمل الفعل (فيكيدو لك) نجد أن الفعل جاء معه الجار والمجرور مع أن الفعل متعد يصل إلى مفعوله بنفسه، وهذا العدول عند التأمل نجد أن الفعل هنا ضُمِّنَ معنى فعلٍ آخر وهو الاحتيال، فيكون الفعل هنا حمل المعنيين: المعنى الأول الظاهر، والمعنى الآخر من خلال المتعلق بقول الزمخشري: ((فإن قلت: هلا قيل: فيكيدوك، كما قيل: فكيدوني؟ قلت: ضمن معنى فعل يتعدى باللام؛ ليفيد معنى فعل الكيد، مع إفادة معنى الفعل المضمن، فيكون آكد وأبلغ في التخويف، وذلك نحو: فيحتالوا لك))[٢]. (فالكيد له) يحمل معنى أقرب لما أراده يعقوب عليه السلام في تحذير يوسف عليه السلام من إخوته، حيث إن الحالة التي يخاف منها يعقوب لم تكن مقصودة لذاتها؛ لذا يقول أبو السعود: ((وهذا الأسلوب آكد من أن يقال: فيكيدوك كيدًا، إذ ليس فيه دلالة على كون نفس الفعل مقصود الإيقاع، وقد قيل: إنما جيء باللام؛ ليفيد معنى المضمن والمضمن فيه للتأكيد، أي: فيحتالوا لك، ولإهلاكك حيلة وكيدًا))[٣]. فلم يسبق لهم

(١) البحر المحيط، ٣/٥١.
(٢) الكشاف، ٣/٢٥٥.
(٣) تفسير أبي السعود، ٣/ ١٠٨.

قبل واقعة الجب أي كيد حتى يعبر بالكيد في معناه الحرفي، وهو إلحاق الضرر، إنما توجّسَ منهم احتيالًا وخيفة.

وهكذا تبين لنا العدول النوعي والكمي على المستوى الفردي للفظة والمستوى التركيبي للجمل، ومدى ائتلافه الدقيق مع الحالة التي يخبرﷻ عنها، وما فيها من عوامل نفسية متنوعة تتنوع معها الأخبار في وصف دقيق لا يتفاوت بيانه، فمع ما تتبعنا من مسائل فيها عدول عن الظاهر أو عن القاعدة النحوية أو الصرفية إلا أن خلف ذلك العدول من البيان والأسرار ما يفوق التعبير في هذا المقام لو جاءت اللفظة أو التركيب على نسق القاعدة النحوية أو الصرفية في التركيب المثالي.

**

الخاتمة

الحمد لله وحده

جاء هذا البحث من خلال مقدمة ومبحثين: الأول: في بيان مفاهيم البحث التي تتمثل في بيان مفهوم العدول، ومفهوم الائتلاف، وأنواع الأحوال المخبر عنها في القرآن، والثاني: مبحث للدراسة التطبيقية للعدول في الخطاب القرآني وائتلافه مع أحوال المخبر عنه، وفيه مطلبان: المطلب الأول: الأحوال الثابتة للمخبر عنه، والمطلب الثاني: أحوال المخبر عنه الطارئة (العوامل النفسية)، ثم الخاتمة والمراجع.

أظهرت الدراسة نتائج عدة، منها:

- جماليات العدول في الخطاب القرآني الذي يتعالى على التركيب المعهود، أو القاعدة النحوية، أو الصرفية، أو الاختيار الأكثر استعمالاً من خلال الوقوف على أسرار العدول وتوجيهه الذي يقود البلاغي من تعليل العدول والبحث عن مخرج لحمل الخروج عن القاعدة أو أوجه الاستعمال إلى إظهار الجماليات والإعجاز القرآني من خلال هذا العدول؛ إذ لو جاء الخطاب بغير هذا العدول لما أدى هذا المستوى العالي من البيان.
- أثبت البحث دقة ألفاظ القرآن وسمو نظمه في الاتساق الكبير بين المحافظة على أعلى مستويات الخطاب البياني مع مراعاة تباين مستويات من أخبر عنهم، والإخبار عن أحوالهم النفسية، بما يأتلف مع أحوالهم على اختلافها وتباينها.
- الوقوف على وجه من أوجه الإعجاز في كون النص القرآني نصًّا إلهيًّا يصدر من علام الغيوم ﷻ، الذي أحاط بكل شيء علمًا، واطلع على مكنون الصدور، وما تمتاز به كل نفس من النفوس التي أخبر عنها حقيقة لا تمثيلًا ولا تخييلًا.

وهذه النتائج أوصلت الباحث إلى أن يدعو الباحثين إلى مزيد من التأمل في دراسة العدول القرآني والوقوف على أسرار هذا العدول، والخروج بأوجه جديدة تتعدى الإطار الذي رسمه له الأوائل في مباحث الائتلاف؛ كي تصل الدراسات إلى أوجه جديدة من أسرار العدول وائتلافه مع الزمن والمكان والشخصيات وغيرها مما يحيط بظروف النص وملابساته. وفي الختام أسأل الله أن ينفع بهذا البحث كاتبه وناقده وقارئه.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المصادر والمراجع

– القرآن الكريم.

- ابن أبي الإصبع المصري، بديع القرآن، تحقيق: حفني محمد شرف، نهضة مصر للطباعة.
- ابن أبي الإصبع، تحرير التحبير، تحقيق: حفني محمد شرف، لجنة إحياء التراث– مصر.
- ابن الأثير، المثل السائر، تحقيق: أحمد الحوفي، وبدوي طبانة، دار الرفاعي – الرياض، ط الثانية، ١٤٠٣هـ.
- ابن جني، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، ١٣٧٢هـ.
- ابن حجة الحموي، خزانة الأدب وغاية الأرب، دار ومكتبة الهلال – بيروت، ط الأولى، ١٩٨٧.
- ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه نقده، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل– بيروت.
- ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر– تونس، ١٩٨٤م.
- ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم (سورة النساء)، دار ابن الجوزي– السعودية، الطبعة الأولى،
- ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز: تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية– بيروت، ط الأولى، ١٤٢٢هـ.
- ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، المكتبة العلمية.
- ابن منظور: لسان العرب، طبعة دار إحياء التراث– بيروت، الطبعة الثالثة.
- أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (تفسير أبي السعود)، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، مكتبة الرياض الحديثة– السعودية.

- أبو عبيدة، مجاز القرآن، علق عليه: فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي –مصر.
- أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، طبعة الدار العربية للموسوعات– بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ.
- بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن: تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث– القاهرة.
- بدر الدين بن مالك، المصباح.
- البغوي، معالم التنزيل، حققه: محمود النمر، عثمان جمعة، سليمان الحرش، دار طيبة للنشر– الرياض، ١٤١١هـ.
- البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي– القاهرة، ١٤٠٤هـ.
- البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل (تفسير البيضاوي)، دار إحياء التراث العربي– بيروت، ط الأولى.
- تمام حسان، البيان في روائع القرآن (دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني) عالم الكتب–مصر، ط:الأولى، ١٤١٣هـ.
- جاك موشلر– آن ريبول، القاموس الموسوعي للتداولية، ترجمة عدد من الباحثين، المركز الوطني للترجمة– تونس.
- الخليل بن أحمد،معجم العين،تحقيق:عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية– بيروت، ط الأولى، ١٤٢٤هـ.
- الرازي، مفاتيح الغيب، دار الفكر– بيروت، ط الأولى، ١٤٠١هـ.
- الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي– بيروت، ط التاسعة، ١٣٩٣هـ.

- الزمخشري، الكشاف، تعليق ودراسة عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، مكتبة العبيكان– الرياض، ط الأولى، ١٤١٨هـ.
- السبكي، عروس الأفراح، تحقيق خليل إبراهيم خليل، دار الكتب العلمية– بيروت، ١٤٢٢هـ.
- الشاطبي، الموافقات، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، طبعة المكتبة العصرية–بيروت، ط الأولى،١٤٣٢هـ.
- عبد الرحمن السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن اللويحق، مكتبة المعارف– الرياص.
- عبد الله صولة، الحجاج في القرآن، طبعة دار الفارابي –بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠١.
- العلوي، الطراز، مطبعة المقتطف– مصر، ١٣٢٣هـ.
- علي صدر الدين المدني، أنوار الربيع، تحقيق: شاكر هادي شكر، مطبعة النعمان، الطبعة الأولى، ١٣٨٨هـ.
- فان ديك، النص والسياق، ترجمة عبد القادر قنيني، طبعة أفريقيا الشرق.
- قدامة بن جعفر، نقد الشعر، طبعة الجوائب، قسطنطينية، الطبعة الأولى، ١٣٠٢هـ.
- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: عبد الله التركي، مؤسسة الرسالة– بيروت، ط الأولى، ١٤٢٧هـ.
- أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط في التفسير، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية– بيروت، ط الأولى، ١٤١٣هـ.

- محمد العمري، البلاغة العربية (أصولها وامتداداتها)، أفريقيا الشرق، المغرب، الطبعة الثانية، ٢٠١٠م.
- المرزباني، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، طبعة دار الكتب العلمية– لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

* * *